362

HARLEQUIN

روايات أحلام

معارك حب

رينيه روزيل

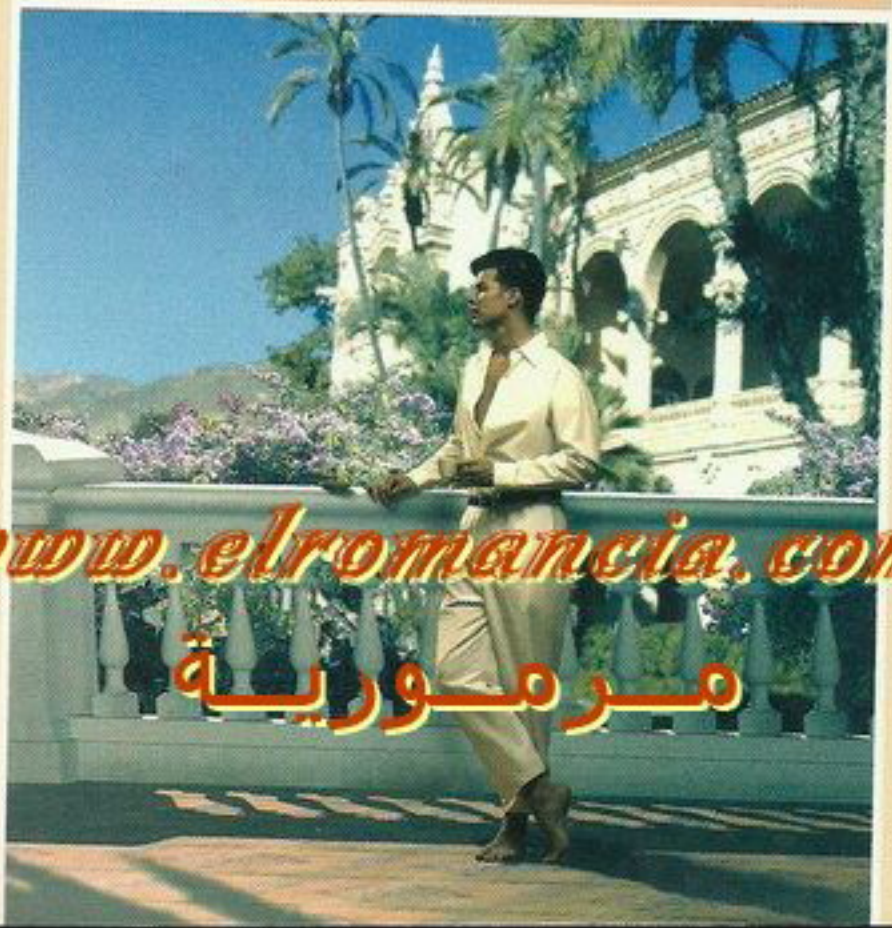

www.elromancia.com
مرمورية

معارك حب

وافق تاغارت لنكستر رغماً عنه أن يحل محل صديقه وينتحل شخصيته لأسباب وجيهة . إلا أن تنكره كان ناجحاً لدرجة أن الجميع ، بما فيهم ماري أومارا ، صدق أنه ذلك الفتى العابث الذي يقلده !

لكن ماري لم تكن تريد أي علاقة بهذا المخادع .. كانت تريد أن تنسى حتى أنها عرفته .. فأن يكذب عليها بهذه الوقاحة بينما يبدو غاضباً من نفسه ، هذا يتطلب موهبة كبرى ... ومقداراً كبيراً من الخبرة !

هل يظن هذا الفتى العابث أن تمثيله دور البريء سينجح في إيقاعها في شباكه ؟ وهل يظن أنها سهلة المنال لمجرد أنها غير محنكة وقادمة من مدينة صغيرة ؟

١ ـ خدمة وخدعة

في اللحظة التي سيترجّل فيها تاغارت لنكستر من سيارته المستأجرة سيبدو دجالاً محتالاً وابناً مبذراً يعود إلى دياره بعد غياب ستة عشر عاماً.

أخذ تاغارت يحدق من خلال الزجاج الأمامي إلى البيت الأنيق ذي النوافذ البارزة الحمرية اللون والمتألق وسط مكان دائم الخضرة. شدّ قبضتيه على عجلة القيادة حتى ابيضّت سلاميات أصابعه، ثم أخذ يلعن نفسه. ما الذي يفعله؟ ما الذي تملّكه حتى يوافق على مثل هذا العمل الطائش؟

تحوّل نظره إلى البرج المثلث الزوايا، مستوعباً بصمت وكآبة، الجمال الريفي البالغ للجبال الأميركية الصخرية الشاهقة والشلالات التي تعكس ألوان قوس قزح.

بونر ويترينج، أقدم أصدقاء تاغارت وأكثر موكّليه استهلاكاً لوقته، كان قد قال له إن جبال كولورادو الصخرية رائعة الجمال، الأمر الذي ذكّر تاغارت بجبال الألب السويسرية والمدرسة الداخلية البعيدة حيث نشأ كلاهما. واكتسحته موجة حنين إلى الوطن فتخلّص منها. هذه الصداقة هي التي أقحمته في هذه الورطة.

لكنه بحاجة إلى عطلة، وكانت هذه حجّة أخرى دعمت موقف بونر الذي لا يستطيع مغادرة بوسطن بسبب ظروف كفالته. وبصفته محاميه، لم يستطع تاغارت أن يسمح لبونر بأن يغادر المدينة.

وهز تاغارت رأسه متمتماً: «لا بد أنني مجنون».

ما كان أحد آخر في العالم ليستطيع إقناعه بالقيام بمثل هذه الخطة الشاذة.

لكن تاغارت وبونر أكثر من أخوين حقيقيين. ولسوء الحظ أنهما متشابهان تماماً، ما سهل كثيراً هذه الخطة المشؤومة.

قال متذمراً: «بونر، يا صديقي القديم، لا أعرف أينا أكثر جنوناً. أنت لحماقتك، أم أنا لموافقتي على هذه... هذه الحماقة».

وبقي لحظة مطولة ضاغطاً على عجلة القيادة، متمتماً: «إسداء خدمة لصديق جريمة، فأنت هنا فقط لتسعد امرأة عجوزاً مريضة. تحرك إذن... أخرج من السيارة».

أخذ نفساً عميقاً، ثم فتح الباب.

لقد ابتدأت اللعبة! تناول حقيبته من صندوق السيارة وتوجّه نحو الدرجات الخشبية المؤدية إلى فسحة الباب الأمامي، وسُمع وقع أقدامه على الخشب الأحمر أشبه برعد قادم. وللمرة الألف هزّ رأسه، نابذاً تلك التذمرات المرتابة لموافقته على خطة بونر. طرق الباب بعنف منفّساً بذلك عن إحباطه. وتمتم محدثاً نفسه: لا يمكنها أن تدرك أنك لست بونر، فقد كان في التاسعة عشرة عندما جاء إلى هنا آخر مرة، والناس يتغيرون، ناهيك عن أنها عمياء صماء.

حتى ولو لم تكن كذلك، فهو وبونر يتشابهان بلون الشعر الأسود والعيون البنية والقامة الطويلة والجسم الرياضي إذ كانا يتدربان على رفع الأثقال بشكل منتظم ويمارسان رياضة كرة السلة. فضلاً عن أن تاغارت يعرف بونر كما يعرف نفسه.

لذا بإمكانه أن يقوم بهذه الخدمة لصديقه فيبهج جدته المعلولة المتلهفة إلى أن ترى آخر ما لديها من أقارب ولو مرة قبل أن تموت.

انفتح الباب الأمامي وظهرت امرأة صلبة الجسم بدت في منتصف الأربعين من العمر وقد خط الشيب شعرها القصير البني الجعد. التعبير الوحيد الذي بدا على وجهها المربع وتقاطيعها الصغيرة العادية الجمال كان الترحيب الهادئ.

سألته بلهجة لم يبدُ فيها شوق إلى لقائه: «سيد ويترينج؟».

فأومأ: «لقد تأخرت قليلاً بسبب تغير موعد الطائرة...».

ـ نعم، لقد سألنا المطار.

هل ظنوا أن بونر قرر مرة أخرى أن يخيب أمل جدته لأجل حادثة طارئة طائشة؟ هذه الفكرة جعلته يغضب من نفسه لأنه لم يتصل بهم هاتفياً ليطمئنهم.

ـ آسف، كان عليّ أن أتصل.

فقالت بشيء من الحدة: «ليتك فعلت».

لم يلمها لموقفها هذا بل على العكس، شعر بالعطف على المرأة التي ربما هي راعية المريضة التي لا تنفك عن الكتابة إلى بونر بعناد، تتوسل إليه أن يكتب إلى جدته.. كان اهتمامها بمخدومتها واضحاً وكذلك حرصها العنيف على مشاعرها.

قال كما هو مفترض في الحفيد النادم أن يقول: «أودّ أن أرى جدتي في أسرع وقت ممكن».

لانت ملامح المرأة ولكن ليس إلى حد الابتسام: «بعد أن آخذك إلى غرفتك، سأخبر ميزويتي بمقدار لهفتك إلى رؤيتها».

آه، نعم! ميزويتي! هكذا يدعوها بونر دوماً.

أشارت المرأة إليه أن يتقدمها، ثم تحولت عن طريقه: «أنا السيدة كنت، مديرة المنزل. الجميع يسمونني روبي».

ـ تشرفت بمعرفتك يا روبي.

وتبعها إلى السلم. لم يكن وقته كافياً لكي ينظر حوله. كان طراز الأثاث بين العصري والتراثي، وتكهن بأنها قطع أثاث أصلية جُمعت على مرّ السنين.

كان جوّ البيت رومنسياً، تعبق في جوّه رائحة طلاء تلميع الأثاث وأريج الأزهار. كان بيته، يوماً ما يعبق بمثل هذه الروائح، إلى أن...

ـ هذه غرفتك يا سيد ويترينج.

قاطعت المرأة أفكاره الكئيبة، وهي تفتح باب الغرفة.

ـ ناديني... بونر.

ففي النهاية سيكون هو بونر ويترينج خلال الأسبوعين القادمين.

قالت له المرأة: «غرفة ميزويتي في مؤخرة المنزل، سأخبرها بوصولك. ارتح قليلاً ثم اذهب إليها».

ـ شكراً، يا روبي.

ودخل إلى غرفة مشمسة مريحة مؤثثة ببساطة ومفروشة بسجادة متألقة الألوان. كانت تغطي النافذة ستارة من الدانتيل، وأمامها منضدة عليها باقة أزهار طبيعية ملونة، ملأت الغرفة بشذاها.

وضع حقيبته على الأرض ثم التفت إلى مدبرة المنزل ليثني على الأثاث فلم يجدها. نظر إلى الردهة فلمحها تدخل غرفة ميزويتي لتعلن دون شك، الخبر الهام... وصول المبذر المتلاف.

أو هذا ما ظنوه!

قرر تاغارت أن يمنح ميزويتي عدة دقائق تعدّ فيها نفسها لوصوله، ففتح حقيبته وأخرج أغراضه وقرر ألاّ يغير بذلة العمل التي يرتديها رغم أنه لم يتذكر بونر وهو يرتدي واحدة على الإطلاق، إلا أثناء زفافه هو من أناليزا. ثم، بعد ثلاث سنوات، أثناء جنازتها. لكن ميزويتي لا تعرف ما يرتديه بونر. وآخر مرة رأته في البذلة كان في جنازة والديه اللذين قضيا إثر انهيار ثلجي.

مرّ بيده على شعره منفّساً بذلك عما يشعر به من إحباط لأن لَطْم الجدار بقبضته لن ينفعه بشيء.

رأى تكشيرته في المرآة، فحاول تبديدها قبل مغادرة الغرفة. لقد حان الوقت، وقد أرجأ ذلك بما يكفي. سار إلى باب غرفة ميزويتي وقرعه، وسمع صوتاً عذباً رخيماً يطلب منه الدخول وكأن صاحبة الصوت كانت مبتهجة.

اكتسحته موجة جديدة من الاشمئزاز من النفس وهو يدير قبضة الباب ثم يفتحه.

تحوّل انتباهه على الفور إلى وسط الغرفة حيث كان سرير فسيح مزخرف تمددت فيه امرأة صغيرة الجسم تشبه الملكات ببشرتها العاجية وابتسامتها وعينيها الواسعتين البنيتين وملامحها الكلاسيكية المنتظمة. كان يتوّج رأسها شعر أبيض أنيق ورآها تاغارت امرأة جذابة فتيّة المظهر، أصغر بكثير من أعوامها الخمسة والسبعين.

مدّت ذراعيها هاتفة: «يا حبيبي بوني».

واغرورقت عيناها بدموع الفرح، فتملكت تاغارت رغبة بالعودة إلى بوسطن على الفور، لكي يرفس بونر لإهماله هذه المرأة الهشة. ودون أي تردد، تقدم إلى المرأة وانحنى فوق السرير، ما سمح لها بأخذه بين ذراعيها. فضمّها إليه بلطف وهو يتشمّم رائحة الصابون الفرنسي التي تفوح منها.

ـ ما أحسن أن أراك يا ميزويتي، تبدين رائعة.

كان قد رأى صورتها التي يحتفظ بها بونر. إنها الآن أكبر بعشر سنوات تقريباً ومما قاله بونر عن صحتها السقيمة، دهش تاغارت وهو يراها بصحة حسنة. لم تكن عمياء بكل تأكيد، حتى أنها لم تكن تبدو بحاجة إلى نظارات، أما بالنسبة إلى سمعها فلم يكن واثقاً، ولكن يبدو أنها سمعت طرقه على الباب. وسألها بصوت عادي يختبر بذلك مقدار سمعها: «كيف حالك؟».

ـ بأحسن حال، ساقي اليمنى متصلبة. لا أستطيع الوقوف منذ أن أُصبت بنوبة قلب. كما أن الالتهاب الرئوي ليس سهلاً، لكن صحتي تتحسن يوماً بعد يوم.

وأمسكت بذراعيه تبعده عنها قليلاً لكي تتأمله جيداً. أخذت تتفحص وجهه باسمة، وكان من الصعب على تاغارت أن يحافظ على ملامحه الراضية. أتراها لاحظت أنه ليس بونر؟

لامست خده بيدها الصغيرة الباردة بمحبة: «أنت أكثر وسامة مما أتذكر».

تحرك بعدم ارتياح، لا يدري ما عليه أن يقول.

أثار انتباهه سعال خفيف من مكان ما خلفه، فالتفت، ورأى امرأة رائعة تقف خلفه وعيناها شاخصتان على ميزويتي. كانت ترتدي بنطلون جينز أزرق وقميصاً ورديا مقفلاً وحذاءً خفيفاً وتحمل بيديها صينية عليها فنجان شاي وصحن من الخبز المحمص. استقام في وقفته وقد دهش لظهورها السحري تقريباً.

ـ آه، يا حبيبي بونر، هذه العاملة الاجتماعية التي تهتم بي من مؤسسة «العافية»، ماري أومارا. هذا حفيدي بونر يا ماري.

نقلت المرأة انتباهها إليه ثم أومأت باسمة بتهذيب: «أهلاً وسهلاً يا سيد ويترينج».

كان صوتها رقيقاً ووجد تاغارت نفسه يحدّق إليها مراقباً خفة وأناقة حركاتها.

كان شعرها طويلاً مرسلاً أسود، مفروقاً في الوسط، يتحرك مع كل خطوة تخطوها. وتسمّر تاغارت في مكانه وهو يتأملها، وكأنه منوّم مغناطيسياً.

عندما وصلت إليه، نظرت إلى وجهه مباشرة. كان لون عينيها مزيجاً رائعاً من اللونين الأزرق والبني فأصبح يشبه الدخان، وبدتا متوهجتين أشبه ببرق يسبق العاصفة.

قالت بصوت أبح هو بروعة ابتسامتها: «المعذرة، من فضلك، يا سيد ويترينج».

أدرك أخيراً أنه يقف في طريقها فتحوّل جانباً شاعراً بالغباء: «آسف».

ـ لا عليك.

ثم قالت مخاطبة السيدة ميزويتي: «انتهى عندنا مربى البرتقال، أرجو أن

يعجبك مربى الفراولة».

كانت ضحكة ميزويتي الرقيقة كرنين الجرس وهي تشبك أصابعها بأصابعه وتقول: «إنه لذيذ تماماً، لا شيء يزعجني هذا النهار، فأنا سعيدة جداً. لقد عاد حبيبي بونر أخيراً إلى البيت».

سلخ تاغارت عينيه عن الشابة لينظر إلى ميزويتي التي كانت عيناها مغرورقتين بالدموع، فتملكه شعور بالذنب وشدّ على يدها مواسياً، لكنه لم يستطع أن يبتسم.

قالت ماري أومارا: «أنا مسرورة جداً لسعادتك».

وتحول نظرها إلى تاغارت باسمة، ولمس جمال ابتسامتها شيئاً في داخله ظنه قد مات مع موت أناليزا.

لم يكن رجلاً كثير الابتسام، لكنه وجد نفسه على وشك أن يفعل ذلك وهو ينظر إلى هذه المرأة السوداء الشعر الدخانية العينين تقول له: «أرجو أن تستمتع بزيارتك هذه يا سيد ويترينج».

كان صوتها الأبح مجرد همس، ومع ذلك كان رنينه طويلاً عالياً في رأسه.

قال وهو يشعر وكأنه تلميذ معقود اللسان: «ناديني بونر».

ـ شكراً.

ونظرت إلى ميزويتي: «أتريدين شيئاً آخر؟».

ـ لا يا عزيزتي، اذهبي وارتاحي قليلاً.

أخذت المرأة العجوز تسكب الشاي في كوبها ثم توقفت:

ـ آه، أين سلوكي المهذب؟ بونر، حبيبي، أتريد كوب شاي؟ وربما طعاماً خفيفاً بعد رحلتك الطويلة؟ طبعاً تريد ذلك. أرجوك يا ماري، اطلبي من الطاهية صحناً آخر من الخبز المحمص ومزيداً من الشاي.

ـ حالاً.

لكنه استوقفها بقوله: «إذا كنتُ أريد القهوة، أحضرها بنفسي».

فنظرت ماري إليه: «لا تزعج نفسك يا سيدي، أنا سأحضرها».

ـ لا، أبداً.

والتفت إلى ميزويتي: «سأعود حالاً».

كان منزعجاً لفكرة ابتعاد ماري أومارا. وابتسمت ميزويتي، وتناولت فنجانها: «هذه شهامة منك يا بونر».

ثم ابتسمت لماري: «إنه كنز حقاً».

ابتسمت المرأة الشابة لخدومتها، ثم استدارت لتغادر الغرفة فتبعها بونر مغلقاً الباب خلفه.

وفجأة، شعر تاغارت أن من الضروري أن يرى عينيها مرة أخرى، ويحس بدفء ابتسامتها. لم يساوره هذا الشعور منذ الليلة التي تعرف فيها إلى أناليزا، ولم يتوقع قط أن يساوره شعور مماثل مرة أخرى. وكانا، هو وأناليزا، قد وقعا في الحب في ليلة تعارفهما، وقد تزوجا بعد ذلك بثلاثة أسابيع.

بقي فترة طويلة بعد موت زوجته عازفاً عن الخروج مع النساء، وبعد ثلاث سنوات أقنعه أصدقاؤه بتغيير مسار حياته. ولكنه لم يصبح عابثاً مثل بونر.

لم يكن قط من النوع الذي يطارد امرأة، ولا عرف تلك الرغبة القوية في الحديث مع امرأة، منذ موت أناليزا... إلاّ الآن. سألها باسماً: «ماري؟ هل يمكنني أن أدعوك ماري؟ أنت إذن ماري التي كتبت لي تلك الرسائل؟».

وقفت على قمة السلم فجأة واستدارت تواجهه. هاتان العينان الرائعتان اللتان كان متلهفاً إلى التحديق في أعماقهما مرة أخرى أذهلتاه بالتحوّل الذي طرأ عليهما فقد كانتا تشتعلان ازدراءً وحقداً: «نعم، أنا هي ماري. كيف تجرؤ على إهمال تلك المرأة الرائعة كل تلك السنوات، أيها... أيها الأناني؟».

كان صوتها المثير ذاك الذي أراد أن يسمعه ثانياً قد أصبح الآن منخفضاً قاسياً.

وقف تاغارت واجماً معقود اللسان. تحوّلها هذا من العذوبة إلى الحقد كان

سريعاً عنيفاً فاجأه تماماً.

وتابعت تقول هامسة بصوت بالغ الخفوت: «لأجل ميزويتي، عندما نكون أنا وأنت معها في الغرفة، سأتصرف بتهذيب بالغ، وأتظاهر بالمودّة. سأدعوك بونر في وجودها إذا شاءت هي ذلك. أما فيما عدا ذلك سأدعوك السيد ويترينج، وأريد منك أن تبتعد عن طريقي».

www.elromancia.com

٢ ـ حتى آخر يوم من حياتي

أخذ تاغارت ينظر إلى ماري أومارا ذات العينين الدخانيتين وهي تهبط السلم كالعاصفة، وكان الجوّ حوله لا يزال يغلي هياجاً.

بصفته محامياً، كان معتاداً على العلاقات العدائية لكنه لم يتوقع هذه العلاقة إطلاقاً، مع أنه يعلم أن ماري استمرت في كتابة الرسائل إلى بونر طوال عامين متوسلة إليه لكي يحضر، فيرسل هو الرفض إثر الرفض. أي موقف آخر كان يظنها ستتخذ منه؟ كان تاغارت عادة ماهراً في سبر غور الشخص، ولكن من الواضح أن شيئاً في ابتسامتها أو عينيها الدخانيتين قد عطل تفكيره، وما لسعته به بصوتها قد آلمه جداً. دس يديه في جيبي بنطلونه، وهو يتمتم: «حتى الآن، ما قابلوني به هو الشكوك والازدراء فشكراً لك يا صديقي القديم بونر».

ربما فنجان ثقيل من القهوة يمكنه أن يمحو مرارة احتقار ماري أومارا له.

توجّه إلى خلف المنزل مفترضاً أنه سيجد المطبخ هناك. وكان على صواب لكنه دهش عندما وجد مبغضته ماري أومارا واقفة تتحدث إلى امرأة أخرى في المطبخ، شقراء متينة البنيان في مثل سنّه تقريباً. وكانت جميلة ولكن ليست بمثل فتنة ماري.

عندما رأته الشقراء رفعت حاجبيها الرقيقين ونظرت إليه متفحصة. بينما فعلت ماري أومارا العكس فأدارت له ظهرها مظهرة له العداء.

حاول أن ينبذ غضبه لازدرائها الواضح لتطفله هذا، لكنها تعلم أنه يريد قهوة فأين تريده أن يذهب لإحضارها؟ إلى البرازيل؟

حيّته الشقراء وهي تستدير لتواجهه تماماً، ورغم الملعقة الكبيرة الخشبية

التي كانت في يدها، شبكت ذراعيها على صدرها العامر. كانت ترتدي بنطلون جينز مثل ماري أومارا، لكن بنطلونها أضيق بكثير. «إذن، فذلك هو الفتى السيء الذي كنا نسمع عنه؟».

سقطت من ملعقة الطهي التي بيد الطاهية قطرة من المرق على الأرض الخشبية، فقالت ماري: «بولين، انتبهي، المرق يقطر من الملعقة».

فتابعت الشقراء النظر إلى تاغارت: «المعذرة لكنه أظرف من دخل هذا المطبخ منذ وقت طويل».

- لأجل السماء يا بولين.

قالت ماري هذا وهي تقف بجانب الطاهية وقد بدا الجفاء على جانب وجهها، متجاهلة تاغارت. أخذت الملعقة الخشبية من يد الطاهية المعجبة ثم أعادتها إلى مكانها: «مرق المكرونة يقطر من ملعقتك».

فنظرت الطاهية إلى الأرض: «أووه...» وهزت كتفيها فاتسعت الفجوة في قميصها. فقالت ماري نصف هامسة وهي تلقي بنظرة عنيفة باتجاه تاغارت: «بولين، أزرار قميصك مفتوحة... أنا في القبو إذا احتجتني».

- شكراً، يا ماري.

توارت ماري إلى خلف المطبخ، وعندما خرجت ساد الملل كل شيء.

قالت الطاهية مكشرة: «لم أر ماري من قبل بهذا التصرف».

فعاد تاغارت بنظره إليها وقال متهكماً: «أتراها تعاني من شيء ما؟».

بدا الارتباك على الطاهية لحظة، ثم ضحكت وقالت وهي تردّ خصلة شعر شقراء منفلتة إلى الخلف: «ماري تتابع دروساً في التمريض في مدرسة ليلية، فعلى الممرضة أن تعرف كيف تنسجم مع المريض... المريض السيء الخلق. ولطالما ظننتُها ليّنة الطباع سهلة المعشر إلى أن جئت أنت».

إذن، ماري أومارا سهلة المعشر مع الجميع ما عدا الشخص الذي تعرفه أنانياً عابثاً والذي يدعى بونر ويترينج، وقال ساخراً: «ربما كانت لترضى عني

لو أحضرت معي شيئاً».

عادت الطاهية تضحك: «أنت ظريف، ظريف وذكي، وأنا أحب ذلك في الرجل».

وغمزت بعينها.

تنحنح بضيق لاتجاه الحديث. لقد سبق له معرفة نساء مثل بولين، وأحس بأنها سهلة بشكل بالغ، على الأقل بالنسبة إلى الرجال. إنها من خلال تصرفاتها الخليعة، تسرف في التعويض عن شعورها بالنقص.

تقدمت إليه تمدّ يدها مصافحة: «لا أظننا تعارفنا بشكل رسمي. أنا بولين بوردو. ميزويتي وروبي يسميانني (الطاهية) وهذا ما أكرهه. أما أنت فيمكنك أن تسميني ما تشاء».

وعادت تغمز بعينها.

أرغم نفسه على البقاء مهذباً ومدّ لها يده: «أنا بونر».

ـ أعلم هذا. المدينة بأسرها تعلم أنك هنا.

آه، هذا عظيم. لقد سبقت بونر سمعته. وقد عرف تاغارت حتى الآن أربعة مواقف مختلفة منه، الارتياب، التفاني، الاشمئزاز، والآن، الاشتهاء. وهو ربما لا يريد أن يعرف أياً منها هو المسيطر.

نظر حوله فرأى جهاز صنع القهوة، فأشار إليه: «أنا هنا لأجل القهوة، ميزويتي بانتظاري».

لم تترك بولين يده: «هذا مؤسف».

وأشارت بكتفها إلى الصلصة التي تغلي على النار: «أنا لا أسكن هنا كماري وروبي، ولذا عادة أكون حرّة في السابعة. يكفي أن تؤشر بإصبعك أيها الوسيم، فآتي إليك ركضاً، لقد سمعت الكثير عنك».

أجابها: «سأتذكر هذا العرض».

وخلّص نفسه من قبضتها وتوجه نحو جهاز القهوة حيث تناول فنجاناً من

على الرف ليملأه بسرعة شاعراً، طوال الوقت، بعينيها عليه. وعندما استدار وجدها حيث تركها بالضبط.

قالت بابتسامة عريضة: «جسد جميل».

حاول جاهداً أن يكبح سخطه، مذكراً نفسه بأنها فتاة لعوب ولن يمنحها أملاً سواء كان ذلك قولاً أم عملاً.

ولكن كان يُفترض به أن يكون بونر ويترينج، زير النساء، ولكي تبدو الخدعة حقيقية، عليه أن يكون ذلق اللسان. ودون أن يبتسم، رفع فنجانه بتحية ساخرة: «يا ليتني أحصل على دولار في كل مرة أسمع فيها هذا».

كانت ضحكتها الماكرة خليعة وقحة.

ـ أنت تدهشني، أيها الوسيم.

لم يكن هذا النهار أحد أفضل أيامه، وعدا عن لقائه بميزويتي، كان يزداد سوءاً كل دقيقة، ولكي يحتفظ بتهذيبه، نظر إلى الباب ثم سار باتجاهه بينما تابعت بولين حديثها:

ـ أنا هنا أكلّمك بحماسة بالغة بينما أنت تقف هناك ببرودة وكأنك تمثال من الثلج. أنت تعرف حقاً كيف تمثل دور المسكين. لا بأس، أيها الرجل الوسيم، ما يبدو منك من عدم اهتمام يحتوي على نار خامدة جعلتني أحترق.

لقد اتخذت من (عدم اهتمامه) ذريعة، ولكن (النار الخامدة)؟؟... إنه يشعر بالأسف لأجلها، ولكن لكل شيء حدود. فسار نحو الباب.

* * *

لم يدرك تاغارت أنه استغرق في النوم إلا بعد أن أيقظه رنين هاتفه الخليوي. مدّ يده في الظلام إلى منضدة السرير يتناول الهاتف: «لنكستر».

ـ انتبه يا تاغارت! لا تستعمل اسمك الحقيقي! أرجو ألاّ يكون أحد يسمعك.

وكان هذا صوتاً مألوفاً لديه لم يخطىء في معرفة صاحبه الذي كان بونر

بنفسه، ففرك عينيه وقال متثائباً:

ـ ألا يمكنك أن تتصل إلاّ ليلاً؟... لا تقل لي إنك في السجن!

ضحك بونر في الطرف الآخر: «لا تتصرف كامرأة عجوز، فأنا مؤمن ملتزم. أنا جالس أمام التلفزيون أشاهد اختراعاً رائعاً. هل تعلم أن بإمكانك أن تشتري حزاماً بقطبين كهربائيين يمكنهما أن يمرناك أثناء نومك؟».

لم يكن تاغارت يريد هذا حالياً، فقال: «عظيم، اطلب واحداً ثم اذهب إلى سريرك».

ضحك بونر وقد أطفأت طبيعته الأنيسة انزعاج تاغارت بأخذه إلى موضوع آخر: «لا بأس، لا بأس. سأدخل الموضوع. كنت أتساءل فقط كيف سار الحال معك. عندما لم تتصل بي بنفسك، فكرت في أن أتصل لأرى إن كانوا قد شنقوك».

جلس تاغارت على حافة السرير: «ما زلت حياً، ولكن لدي شعور بأن ماري أومارا تفكر حقاً في شنقي».

مضت لحظة صمت: «إنها متطفلة عجوز، تجاهلها».

تخلل تاغارت شعره بأصابعه: «لماذا لم أفكر في ذلك»؟

وبعد لحظة صمت أخرى قال: «أنا أعلم أن الأمر سيكون صعباً بوجودها هناك».

- نعم. هذا صحيح.

تمتم تاغارت بذلك وهو ينبذ ذكرى عيني ماري الزرقاوين الدخانيتين من ذهنه.

- حسناً، حدثني عن ميزويتي العجوز. لقد صدّقتك أليس كذلك؟

- أظن ذلك. ولكن هي ليست صماء ولا عمياء تماماً. فهل كان ذلك القول من أكاذيبك أم أكاذيب زخارفك أم زخارف الآنسة أومارا؟

صمت آخر: «آنسة؟ هل هي آنسة؟».

سأله بونر وقد انتفض الفتى العابث فيه: «هل هي جميلة؟ لا، ربما هي من تلك العوانس الكريهات، أليس كذلك؟».

ها قد عدنا مرة أخرى، وقال وقد آلمه ذكرى جمالها البالغ: «حاول أن تركز معي يا بونر. هل أنت الذي كذبت بشأن الصمم والعمى أم هي ماري؟».

- لا بأس لا بأس دعنا نفكر. أظن، ربما نحن الاثنين.

وضحك ببلاهة: «أنت تعرف شعاري. لا بهجة في الحياة إذا لم تستطع أن تزخرفها بشيء من الكذب».

تمنى تاغارت أن يمد يديه عبر الهاتف ويخنق صديقه. لكنه قاوم ذلك الدافع: «أنت محظوظ بشكل لعين لأن وقتاً طويلاً مضى دون أن تراك».

- لكنها مريضة حقاً، أليس كذلك؟ أخبرتني ماري أنها تعرضت لنوبتين وشيء آخر نسيته.

- إنه التهاب رئوي، وهي لا تستطيع السير بسبب النوبتين. ولكن يبدو أنها تتماثل للشفاء. أنا لست طبيباً لكنها لا تبدو امرأة على سرير الموت. شخصياً أنا مسرور لأنها سيدة لطيفة.

وسكت قليلاً ثم قرر أن يضيف: «أنت قذر للطريقة التي عاملتها بها».

- اسمع، أنا أعرف هذا، وأنا، كما تراني، أحاول أن أعوّض عن هذا، أليس كذلك؟

وكان الندم يبدو في صوت بونر، فقطب تاغارت جبينه قائلاً: «أنت تجلس في بيتك في بوسطن تشاهد التلفزيون، بينما أنا في كولورادو أحاول أن أعوّضها عن معاملتك لها».

- أنت على حق، وأنت تقوم بالكثير. وأنا أحبك للغاية لأجل هذا. تذكّر أنه عيد ميلادها الخامس والسبعين، وهي في حالة صحية هشة، وأنا عالق هنا بسبب كفالتي. هذا ليس كذباً، وما تفعله أنت هو أكثر من المطلوب.

- نعم، إنه كذلك.

كان تاغارت بحاجة إلى النوم، ولم يشأ أن يكرّر المحاضرة القديمة نفسها لكنه وجد نفسه يقول: «عليك أن تمنح نتائج ما فعلته مزيداً من التفكير، يا بونر، لو أنك فقط...».

التثاؤبة المسرحية الطويلة التي سمعها تاغارت عبر الهاتف أبدت سأم بونر واضحاً. فصمت لحظة ثم عاد يقول: «اذهب إلى فراشك ولا تتصل بي في انصاف الليالي بعد الآن. وإذا لم تظهر أنباء مقتلي في مانشيتات الصحف المحلية فافترض أنني بخير».

ثم أقفل الهاتف وألقى به جانباً. وإذ بقي مستيقظاً تماماً، شبك أصابعه خلف رأسه مستلقياً على ظهره، وهو يحدق في الظلام.

ولكن رغم اندفاع وعدم نضج بونر، لم يكن تاغارت يتصور حياته من دونه، ذلك أنه، رغم أخطائه، كان متفائلاً على الدوام، ضاحكاً دوماً وكريماً إلى حد السفه.

ألقى تاغارت ذراعه فوق عينيه فتوهجت في ذهنه صور من الماضي البعيد أخذت تتواتر عن نفسه وعن بونر وهما في سن التاسعة عندما ألقت بهما الأحداث معاً.

كان تاغارت قد أُرسِل إلى المدرسة الداخلية في سويسرا عندما قُتل والده في حادث انهيار جسر وكان الوصي عليه عم أبيه العجوز الغريب الأطوار والقريب الوحيد له الذي كان يعمل قاضياً في المحكمة العليا وتفوح منه رائحة السيجار والأوراق القديمة. ربما كان القاضي لنكستر ذا عقل قانوني كبير لكن ذلك العقل لم يكن كافياً لاستيعاب طفل يتيم. بينما أُرسل بونر بعيداً لأن والديه لم يستطيعا التعامل مع ابنهما المنطلق على سجيته والكثير المزاح والذي رفض الإنقياد إلى إرشادهما والتمثل بهما في خلقهما الرصين وطباعهما التي لا تعرف المزاح.

وهكذا، ربطت الصدفة بينهما وهما صبيان صغيران. كان تاغارت مصدر قوة لبونر بينما كان بونر مصدر نشاط وحيوية لتاغارت.

والآن في الخامسة والثلاثين، ما زال بونر يعتمد على تاغارت ليس فقط لأن هذا الأخير صديقه القديم بل أيضاً لأنه أصبح محامياً. وبعد سنوات طويلة كان لا بد من أن يعترف تاغارت ولو بينه وبين نفسه، بأن مساعدته الدائمة لبونر لم تساعده لكي يصبح رجلاً مسؤولاً عن تصرفاته. والحقيقة المحزنة هي أن بونر خبير في السيطرة على تاغارت بروح النكتة التي يتمتع بها وبأسلوبه في استدرار الشفقة... هذا عدا عن أنه هو الذي عرّفه إلى حب حياته... أناليزا.

وشعر بوخزة حزن لذكرى زوجته الحبيبة التي فقدها منذ خمس سنوات أثناء شبوب نار في مستشفى كانت تعمل فيه كجرّاحة أطفال.

سوف يبقى تاغارت دوماً مديناً لبونر لأنه أعطاه أناليزا، ولهذا السبب بالذات هو الآن هنا في مدينة جبلية صغيرة، لمدة أسبوعين، مدعياً شخصية غير شخصيته.

منذ بعض الوقت، وتاغارت يعلم أن ممرضة ميزويتي تراسل بونر وتحاول أن توبخه ليقوم بزيارة لجدته. ولأمر ما، استطاعت رسالتها الأخيرة أن تجعله يشعر بخطأ تصرفاته. ولسوء الحظ، حدث احتكاك آخر بين بونر وجهاز بوسطن القضائي. وهذه المرة لم يكن الأمر بسيطاً كالمرة الماضية حين استأجر فرقة لتعزف لإحدى صديقاته في الساعة الثالثة صباحاً لكي تقبض عليه الشرطة لإزعاجه سكون المنطقة، ولا كانت مشكلته هذه المرة شجاراً لأجل فتاة أو فريق رياضي.

هذه المرة كان بونر متورطاً في صفقة تجارية وكان تاغارت واثقاً من أن بونر لم يقصد قط مخالفة القانون، وإنما اندفاعه المعتاد وسهولة انخداعه هما المذنبان. ومع ذلك فقد كان موعد المحاكمة في آخر أيلول أي بعد شهرين ويمكن أن يحكم عليه بالسجن لفترة غير قصيرة.

وبآهة منخفضة، انبطح على بطنه وقد بدت له أي رغبة في النوم مجرد وهم وتمنيات لن تحصل.

* * *

لم تنم ماري جيداً. اشمئزازها من بونر ويترينج تركها تتقلب طوال الليل. مجرد وجود ذلك الأناني في البيت يثير أعصابها... لا سيما وأن الطريقة الوحيدة التي جعلته أخيراً... أخيراً يحضر إلى هنا كانت تلميحها إلى أن جدته تفكر في حرمانه من الميراث.

يا له من عديم الأخلاق! عندما أخبرته عن النوبات المرضية، عن الالتهاب الرئوي، عن حالة قلبها، لم يتحرك، فاضطرت للكذب. كانت ماري تعلم أنه بدّد تقريباً كل ما ورثه عن والديه، وابتدأ يتقرب بلسانه المعسول من ميز ويتي لكي تدفع له مبالغ كبيرة تغطي تبذيره وإسرافه.

ثم عثرت ماري، مصادفة، على رسالة منه إلى جدته يتملقها لترسل له المال، وبهذا علمت بالضبط ما عليها أن تفعل لتجعله يقوم بالزيارة... وهو أن تهدده بالوصية. وقد نجحت، فقد جاء بسرعة أدارت رأسها. ولأن خطتها نجحت وأوضحت لها أن بونر لا يهتم بصحة جدته بل بالمال، ازداد احتقارها له.

جلست في فراشها ثم تثاءبت وتمطت. وقعت نظراتها على الصورة الموضوعة على المنضدة بجانبها. حتى أثناء اضطراب مشاعرها، استطاعت أن تبتسم ولمست وجه أختها غير الشقيقة ذات الخمسة أعوام «بيكا». كانت أجمل تمنيات ماري أن تحظى بالوصاية على الفتاة بدلاً من والد الطفلة الذي لا يصلح لشيء.

من المحزن أن المعجزات ليست سهلة الحدوث. وهبطت معنوياتها مرة أخرى. نهضت من السرير ثم لبست خفيها وسارت نحو الحمام.

توقفت قليلاً في الممر أمام المرآة، فبادلتها صورتها المنعكسة نظرات الغضب: هل تلك دوائر قاتمة تحت عيني؟ تباً لك يا بونر ويترينج! ما كان ينبغي أن تكون بهذه الوسامة!

تذكرت أول ما شعرت به حين رأته في غرفة ميز ويتي، عندما التفت لينظر إليها. لقد تملكها الذهول حتى أوشكت الصينية أن تسقط من بين يديها. كانت ملامحه التي تشبه ملامح الصقر وسيمة مثيرة للغاية. بدا وكأنه يعلم بالضبط

كيف يميل رأسه وينظم ملامحه لكي يبدو مدهوشاً قليلاً، ومنزعجاً بشكل غامض. لقد كرهت بونر ويترينج، ومع ذلك فقد قفز قلبها انجذاباً إليه. ماذا يفعل هذا الرجل؟ أتراه يتدرب أمام المرآة على تلك النظرة لكي يبدو مغرياً لكي يحيّر النساء ويبعث الاضطراب في نفوسهن؟ واهتزت غير سعيدة بآخر ما فكرت فيه.

كانت ردة فعلها أمس مفاجئة وعندما لسعته بعنف عند قمة السلم، غضبت بعد ذلك من نفسها بقدر ما غضبت منه.

أمضت الليل في مقاومة جاذبية ذلك الرجل الأناني وعادت هذا الصباح إلى ازدرائه بكل خلية تخفق في كيانها.

ولكن ما لبث أن عاد ذهنها إلى عينيه بلونهما الترابي الأحمر وأهدابهما الكثيفة السوداء. كانتا صريحتين إلى درجة محيّرة بالنسبة إلى زير نساء حقير ولكن ربما هكذا يكون زير النساء لكي يتمكن من إغرائهن. بإمكان أحدهم أن يبدو رجلاً حسناً شريف المقصد، وهذا الذي يجعله خطراً إلى هذا الحد.

فتحت باب الحمام ثم جمدت مكانها وقد بدت ردة الفعل في جسدها قبل أن يدرك عقلها الحقيقة. كان يقف، على بعد قدمين منها، ذلك الرجل النهم، زير النساء الحقير، لا يرتدي سوى منشفة... أو ربما عليها أن تقول، الحمد لله أنه يرتدي منشفة!

كان كريم الحلاقة يغطي جانباً من وجهه وبينما وقفت وقد تملكها شلل لم تألفه، توقف هو عن الحلاقة ونظر إليها. لم يبد مصدوماً... ربما مدهوشاً قليلاً. طبعاً... فزير النساء معتاد على دخول النساء عليه في الحمام.

- صباح الخير يا آنسة أومارا.

- آه... أنا...

لم تعرف ماذا تقول. كان لهذا الحقير صدر قوي العضل مزعج للغاية. من الإزعاج بحيث يمكنه أن يسلب أي امرأة قوة الكلام أو حتى الحركة:

«ظننت... لم أكن أظن...».

تماسكي أيتها الحمقاء... هل ظننت أم لم تظني؟ وابتلعت ريقها وهي تحدث نفسها بذلك: «إنها السادسة صباحاً ولم أتوقع أن تكون مستيقظاً».

وعادت تحدث نفسها بأن تخرج وتغلق الباب. ما الذي تفعله مسمّرة عند العتبة؟

رفع وجهه وأخذ يحلق تحت ذقنه: «تأخرت في النوم، في الواقع. إنها الثامنة في بوسطن».

فدهشت: «ظننت أن الشبان العابثين ينامون حتى الظهر».

- وهل أنت خبيرة بعادات الشبان العابثين؟

حاولت جاهدة المحافظة على رزانة ملامحها: «في الواقع، خبرتي مع الشبان العابثين مقتصرة عليك. من الطبيعي أنني سمعت عن...».

وبحثت عن كلمة واحدة تصوّر سمعته الشائنة التي خاضتها الإشاعات على مرّ السنين. وأخيراً قالت: «مآثرك. لا بد أنك تعلم أن أفعال بونر ويترينج على كل شفة ولسان في بلدة تحمل اسمه».

وسكتت بانتظار ردّه لكنه تابع الحلاقة وغاظها منه نفوره من الحديث عن نفسه أو على الأقل إظهار الندم لسلوكه غير المحترم. وأضافت: «على أي حال، لقد عرفت من خلال رسائلك أثناء السنتين الماضيتين، أن رأيي السيء بالشبان العابثين هو صائب تماماً».

فقال: «إذن، فأنت تحكمين على كل العابثين من خلال رأيك بي؟».

هزت كتفيها، راجية أن يكون في حركتها هذه ما يظهر عدم اهتمامها بقربه منها: «فلنقل إن معرفتي بك قد أفسدت رأيي بكل الشبان العابثين».

فقلب شفتيه: «هل تغازلينني يا آنسة أومارا؟».

فشهقت. كانت هذه إغاظة منه لا تحتمل: «أفضّل أن أقطع ذراعي على أن أفعل ذلك».

عاد ينظر إلى المرآة: «إذن، من تكرهين حقاً ليس الشبان العابثين بل أنا».

- إذا كنت أنت مثالاً للفتى العابث، يمكنني إذن أن أقول إنني لست من أنصارك، أو أنصار أمثالك. هل هذا واضح؟

- واضح تماماً، سأبتعد عن طريقك بعد دقيقة.

وبشكل ما، استعادت حركة يديها فأشارت إلى المغسلة: «كنت فقط... أريد أن أغسل أسناني».

وتساءلت عما جعلها تقول ذلك؟ ولماذا تظنه سيهتم؟

عاد ينظر إليها، وتساءلت عما يفكر فيه. لا شيء في وجهه يفصح عن ذلك. تراجع خطوة إلى الخلف ثم أشار إلى المغسلة: «افعلي ما تشائين. يمكنني أن أرى من فوق رأسك».

حدقت إليه وقد أسرعت خفقات قلبها وفتحت فاها.

أتراه يظن حقاً أنها ستنحني على الحوض أمامه بينما هو خلفها لا يلبس إلا منشفة حول وسطه؟

- أفضّل أن أنتظر ريثما تنتهي.

غسل وجهه تحت الماء ثم تناول زجاجة محلول بعد الحلاقة المعطر ووضع منها على يديه وخديه وذقنه المربعة. وكانت هي تنظر إليه وقد تسمّرت مكانها، شاعرة باشتعال حنين غريب في أعماقها. حنين لأي شيء؟ حتماً ليس لهذا الرجل المثير... لا، هي لم تقصد المثير... بل الأناني.

وضع كل شيء مكانه، ثم نظر إليها: «الحمام الآن لك، يا آنسة أومارا».

وقفت دون حراك، ممزقة بين أن تنظر في أعماق هاتين العينين المغناطيسيتين، وبين أن تقتلعهما. بينما تابع هو بشبه انحناءة: «سأنسحب بهدوء».

بعد ذهابه، لم تعرف كم بقيت واقفة مكانها تستجمع شتات أفكارها. بعد ما بدا لها دهراً، استطاعت الحركة فمالت تتكىء على الباب. تخللت

شعرها بيديها تشدّه وقد تملّكها غضب عنيف للسماح لنفسها بأن... تضطرب. نعم، كان ذلك كل ما حدث، كانت مضطربة فهي لم تتوقع رؤيته، خصوصاً بهذا الشكل. كان الوضع مربكاً و... يبعث على الاضطراب.

تنفست بعمق محاولة الهدوء، وتذكير نفسها بأن هذا الرجل حقير. وهمست في سرّها: «أنا أكرهك يا بونر ويترينج. وسأظل أكرهك حتى آخر يوم في حياتي».

شعر تاغارت بأنه يستحق بطولة السباق الأولمبي في الأكل. دقيقة واثنتا عشرة ثانية كانت كافية لالتهام طبق من الفطائر وشريحة سميكة من اللحم وكوب قهوة أحرقت حلقه.

ولكن لو لم يفعل ذلك، لوجد نفسه أسير تلك الطاهية العاشقة المفتونة به حباً.

تمكن من التحرر من لهفتها إليه حين خرج يتمشى في الغابة الخضراء خلف منزل ميزويتي. ومع كل خطوة، كان توتره المكبوت يخف. وفي طريقه رأى ثعلباً وغزالة مع صغارها قبل أن يخرج من برودة الغابة القارسة إلى مرج فسيح تغمره الشمس. وإذا به يرى غديراً صافياً يتلوّى عابراً الأرض الفضاء، تتألق مياهه في أشعة الشمس مسافة قصيرة قبل أن يعود إلى الغابة.

وحيث يجري الغدير، قامت إنشاءات خشبية لمنجم مهجور هي دون شك بقايا مناجم استخراج الفضة. كان بونر قد أخبره على مرّ السنين أن هذا الاستثمار الذكي لعدة أجيال من أسرة ويترينج، قد ضاعف من ثراء الأسرة، ما ساعده على العيش بهذه الرفاهية والإسراف.

أعاد هذا التفكير تاغارت إلى الحاضر وإلى سبب وجوده هنا. ثم وقع بصره على صخرة بارزة بين نبات الخنشار المتطاول في نهاية الغابة فسار نحوها وجلس عليها.

شمل بنظراته الفسحة الخالية من الأشجار السابحة في شمس الصباح. كان

هناك أزهار وفيرة موزعة في كل مكان، وعلى ضفاف النهر الصغير، كانت أزاهر وردية باهتة اللون تزيّن المنظر.

تنشّق الهواء النقي، مستمتعاً بالسكون والإحساس بالسلام. ولم يفهم لماذا تجنب بونر العيش في بلدته. طبعاً، لدى بوسطن الكثير لتقدمه من الفوائد والرفاهية ولكن هذه البراري العذراء فيها بهاء أسمى من مجرد الرفاهية وراحة الإنسان، كم مرة في حياته شعر حقاً بصفاء النفس؟ حتماً ليس أثناء تأديته مهنته القضائية البالغة النفوذ. جلس فترة طويلة جامداً، يعبّ من الهدوء، متحداً بهذه العزلة الموحشة. تملّكه شعور رجل تائه في الصحراء، يموت من العطش، وإذا به يعثر على واحة تفيض بالمياه الباردة المانحة للحياة. لكن الفرق بين تاغارت وعابر السبيل التعيس ذاك، هو أن تاغارت لم يكن واعياً إلى عمق واتساع ذلك الفراغ والظمأ في داخله.

حدّث نفسه بأن حياته مثيرة، مليئة بالتحديات، وأن لديه القوة والسلطة والإحترام والمال... فلماذا يجد أنه في هذه المنطقة الهادئة يشك في كل ما كان هو عليه؟

فكرة الاعتزال هذه كانت مغرية دون شك، لكنها خيالية. على الرجل أن يعيش في العالم الحقيقي ويعمل لمعيشته. أما شكوكه، وورطته العاطفية غير المتوقعة هذه فمن السهل تفسيرها. كان محروماً من النوم، ومشتت الذهن قليلاً، فضلاً عن أنه عرف الحب والاحتقار في يوم واحد، وهذا يمكن أن يكون صعباً بالنسبة إلى نفسية أيّ رجل.

سمع حركة فالتفت متوقعاً أن يرى غزالة أخرى مع صغيرها أو ثعلباً. لكنه، بدلاً من ذلك، ذُهل لرؤية مخلوقة أكثر غرابة بكثير.

كان ظهرها إليه وهي تسير على ضفة النهر حاملةً حزمة من الصفصاف والأزهار. انحنت لتقطف الأزهار الوردية النابتة على ضفاف النهر. وعبث النسيم بشعرها الأسود.

نهضت واقفة برشاقة، كانت تلبس حذاءً ريفياً وبنطلون جينز وكنزة بيضاء ضيقة. تابعت سيرها في الشمس المشرقة ثم وقفت أمام أجمة من شجيرات

التوت البري الحمراء وقطعت بمقص الأعشاب الذي تحمله عدة أغصان أضافتها إلى باقتها.

بعض الأزهار التي تحملها كانت مماثلة لتلك التي تزيّن غرفته، ولم يخطر بباله أن ثمة شخصاً يكلّف نفسه الصعود إلى الجبل فقط لكي يجمع الأزهار البرية لتزيين البيت.

قبل وفاة أناليزا، كانت تصرّ على أن تزين المنزل يومياً بأزهار طبيعية، وهكذا كانت الأزهار ترد إليهما يومياً على مدار العام من متجر أزهار في بوسطن، لكن تلك الباقات كانت تحتوي على لمسات أنثوية غامضة من حياة فقدها مع موت زوجته، وكان قد احتفظ بتلك الذكريات في زاوية مظلمة من قلبه عندما ألقى بنفسه في غمرة العمل لكي ينسى أحزانه، وهذا ما جعل الكآبة تمتلكه.

لاحظ أن ماري أومارا تعاني صعوبة في حمل الباقات وهي تقطع أغصان التوت البري. وبينما كان ينظر إليها، سقط منها مقص الأعشاب، فقرر أن يتخلى عن مشاعر الأسى على نفسه ليقوم بعمل نافع ويعرض عليها المساعدة رغم اشمئزازها منه. وقف وهو يتذكر دخولها الحمام عليه هذا الصباح دون أن تعلم بوجوده فيه. لقد ذُعرت، حينذاك، وأخرسها الذهول. وحتى في ذروة كراهيتها له، بدت مثيرة بشعرها المشعث بشكل ساحر، وخديها الورديين المتألقين بتأثير الصدمة والارتباك.

كان يعلم أن هذه الرحلة ستكون صعبة للغاية، لكنه لم يحسب حساباً لماري أومارا، التي جعلت وضعه الدقيق الصعب أكثر دقة وصعوبة بكثير.

لقد أحب أناليزا وسيحبها دوماً. لهذا لم يستطع أن يفهم سرّ هذا الانجذاب المدهش نحو ماري. لم يشأ أن يشعر بالإنجذاب نحو امرأة أخرى. عندما ماتت زوجته، أقنع نفسه بأنه قد نال حب حياته الكبير فهو بذلك أكبر حظاً من معظم الرجال، وإذا بماري تدخل حياته. جمال هذا الاكتشاف كان نقياً عميقاً يعمي البصر. شعر بالارتباك، وحاول أن ينبذ هذا الشعور.

فما هو فيه يكفيه. أولاً، هو ليس بونر، ثانياً، حتى ولو كان مستعداً للحب، فهو لا يستطيع أن يخبر ماري عن حقيقة هويته. ستغضب للغاية لهذا الخداع وترفض أن تستمر معه في خداع ميز ويتي. لم يساوره الشك في أنها ستخبر مخدومتها على الفور، وهذا سيحطم قلب المرأة العجوز. ولو كان هو في وضع ماري لربما فعل الشيء نفسه. عليه إذن أن يتجاهل هذا الانجذاب المقلق نحو ماري.

وسار نحو المنحدر إلى ضفة الغدير، وتقمص شخصية بونر المرحة وهو يصيح: «أتريدين المساعدة؟».

أجفلت لسماعها صوته وسمع شهقتها المجفلة وهي تستدير جاحظة العينين. «أنت».

وأغمضت عينيها لحظة وكأنما تستجمع توازنها، ثم حملقت فيه: «لقد أفزعتني للغاية. ما الذي تفعله في هذه الأنحاء؟».

فكّر في أن بونر لا بدّ شاهد هذه البراري في صباه، فأجاب: «جئت أستعيد ذكريات الماضي البعيد، طبعاً. دعيني أحمل عنك هذه الأزهار بينما تقطعين أغصان التوت البري؟».

نظرت إلى حملها وقطبت جبينها وكأن لمس بونر ويترينج الأزهار سيجعلها تذوي. انزعاجها الواضح ضايقه، لكنه أخفى مشاعره ثم انحنى يستعيد مقص أعشابها، قائلاً: «أو يمكنني أن أقوم بالقص. أخبريني بما تريدينه».

أخذت نفساً سريعاً ثم زفرت بسرعة: «ما أريده هو أن تذهب إلى الجحيم».

شخر بضحكة خافتة ساخرة: «نعم، حسناً... وغير ذلك؟».

نظرت إلى مقص العشب في يده: «أظنني حصلت على ما يكفي. أعطني المقص لأعود إلى البيت».

لاحظ أن نظراتها كانت على عنقه وليس على وجهه، فقال وهو يدس المقص في جيب بنطلونه الأمامي: «لا مشكلة، يا آنسة أومارا. أنا عائد إلى البيت

ولديك حمل ثقيل».

انتقلت نظراتها إلى عينيه فقرأ فيهما أن الذعر تملكها لأنه وضع المقص حيث لا تستطيع استعادته، وكان يعلم أنها تفضّل الموت على ذلك.

سألها وهو يمسك ذراعها: «هل تذهب؟».

نزعت ذراعها بعنف من يده: «لا بد أنك تمزح!».

لم يدهشه رفضها له وحاول أن يخبر نفسه بأنه غير مهتم لهذا: «إسمعي، حتى الحفيد المهمل يمكنه أن يكون «شهماً».

- حسناً، كن كذلك في مكان آخر. إذا كنت تذكر، يا سيد ويترينج، سبق وطلبت منك أن تبتعد عني.

- إذا كنت تتذكرين، يا آنسة أومارا، أنا لا أمتثل دوماً لما يُطلب مني.

نظرت إليه بعينين ناريتين: «أنت تفاخر بذلك!».

وأدارت له ظهرها وهبطت التلة إلى الغابة الظليلة.

أدرك أنها مصممة على الابتعاد عنه، ففكر بصمت، بأن بإمكانها أن تحاول ذلك لكنها لن تستطيع إلا إذا ركضت بكل قوتها، فهو أطول منها بكثير، وساقاه الطويلتان تجعلان من المستحيل عليها أن تسبقه.

بأربع خطوات واسعة كان بجانبها: «ما نوع العطر الذي تضعينه؟ رائحته أشبه «بالفانيلا».

وكان، في الحقيقة، قد شمّه قبل وصولها بوقت طويل لكنه كان الشيء الوحيد الذي خطر بباله حالياً.

- إنه صنوبر ثقيل الدم.

قالت هذا من خلال شفتين مزمومتين وصرير أسنان.

فسألها: «المعذرة».

- أشعة الشمس تجعل رائحة قشره مثل رائحة الفانيلا.

فقال وهو ينظر إلى جانب وجهها الجاد: «آه، هذا غريب».

وعندما لم تجبه، سألها: «هل هذا التوت البري سام؟».

حملقت باتجاهه لحظة ثم قالت: «جرّب وكل حبة».

فكبح ضحكة: «لا بأس».

قطف حبة من التوت، وبعد تردد خفيف تناولها، واثقاً من أن كراهيتها له لا تصل إلى حد القتل.

- طعمه ليس سيئاً.

فلم تجب.

- كم عليّ أن أنتظر لأرى إن كنت سأموت؟

فحملقت فيه: «من المؤسف أنها عديمة الضرر».

فوجد نفسه يضحك مرة أخرى: «يا للعار».

- يفترض بك أن تعلم ذلك، فأنت وُلدتَ هنا.

شعر بوخزة توجس لكنه قال: «أرسلوني إلى المدرسة الداخلية في التاسعة من عمري، والصبي ينسى كثيراً من تفاصيل بلدته إذا لم يزرها لأكثر من ربع قرن».

- هذا أكيد. وكذلك تفاصيل جدته.

ألقى عليها نظرة سريعة ثم حوّل بصره إلى طريقه: «كيف حالها اليوم؟».

- بأحسن حال، هذه هي باقتها. إنها تتناول فطورها الآن، وحالما تنتهي ستستحّم ثم تقوم ببعض التمارين لساقها، وستكون مستعدة لاستقبال الزيارات حوالى الحادية عشرة.

ونظرت إليه بتمرد، فقال: «أخبريها إذن بأنني سأراها عند الحادية عشرة».

أحس بارتياحها دون أن يراه. ولكن هذا لم يبدد حذرها منه فسألها: «ماذا ظننتي سأفعل؟ أزورها مرة ثم أتجاهلها؟».

فقالت: «لا أستغرب منك شيئاً».

نظر أمامه فلمح البيت من خلال الأشجار وهذا ذكّره بشيء آخر، فقال: «أخبري بولين من فضلك بأني سأتناول الغداء مع ميزويتي».

نظرت إليه بارتياب. إنها طبعاً لا تعرف مشكلته مع الطاهية.

قالت ماري بعد سكوت: «أنا، عادة، أتناول الطعام مع ميزويتي».

دهش لكنه لم يعرف لماذا، وقال: «سأنضم إليك إذن».

وكان يدرك أن هذا الخبر سيعكّر نهارها.

عندما وصلا إلى طرف الغابة بقيت عابسة. ولاحت أمامهما الدرجات الخشبية الحمراء التي تقود إلى مدخل البيت الخلفي، وخلف ذلك كان المطبخ. ولم يكن تاغارت ينوي الدخول إليه.

- هاك.

وأخرج مقص الأعشاب من جيبه وناولها إياه فقالت: «أظنني سأسير إلى المدينة».

وقفت ونظرت إليه ثم انتقل بصرها إلى المقص الذي كان يناولها إياه، ثم اتجهت إلى الباب الخلفي فقال: «أنا أيضاً».

وقفت والتفتت إليه بارتياب: «ماذا؟».

شبك ذراعيه على صدره وقال ساخراً: «أنا أيضاً استمتعت بنزهتنا تلك».

كان يحاول أن يستفزها.

التهبت عيناها واحمرّت وجنتاها: «نحن لم نتنزه يا سيد ويترينج، ومهما كان ما فعلناه فأنا لم أستمتع به».

واستدارت بحدة وركضت عبر الفناء، فشعر بأنها كانت بشوق لتفعل ذلك منذ البداية.

صاح يخاطبها: «سأراك عند الغداء».

وبينما كان ينظر إليها هاربة، أخذ يفكر في تصرفاته متأملاً. كان يعجب من نفسه لإغاظته لها، فهذا لم يكن من طباعه. ما الذي دهاه ليتصرف بهذا الشكل

الشاذ؟ لماذا يغيظ هذه المرأة؟

استدار حول البيت وهو يهز رأسه مخاطباً نفسه: «ما الذي حدث لك، يا لنكستر؟».

* * *

خافت ماري أن تتجمد شفتاها على هذه الابتسامة المتوترة التي رسمتها على شفتيها رغماً عنها أثناء تناولها الغداء مع ميزويتي وبونر ويترينج. الشيء الوحيد الجيد في هذا هو ابتهاج مخدومتها. فقد بدت أصغر بعشر سنوات وأسعد مما عهدته يوماً، ما جعل ماري ترغب في رفسه لإهماله مشاعر هذه المرأة الرائعة وقتاً طويلاً.

- سأساعد في رفع الأطباق.

تطفل هذا الصوت الرجولي على تخيلاتها الحاقدة. فأومأت ووضعت فوطتها بجانب صحنها: «ما أجمل هذا».

ثم وقفت وسارت إلى جانب ميزويتي وأمسكت يد مخدومتها بعطف: «هل هناك ما أحضره إليك؟».

ابتسمت ميزويتي وقد بدت ووجنتاها الشاحبتان الآن، أكثر تورداً مما رأتهما ماري أثناء السنتين اللتين أمضتهما معها. وكانت عيناها أكثر تألقاً: «لا يا عزيزتي. سأقرأ حتى يحين موعد الشاي».

وسحبت يدها من يد ماري وربتت على وجه الفتاة: «أخبري الطاهية بأن الغداء كان لذيذاً كالعادة». وأمسكت بجانبي كرسيها المدّولب وابتدأت تبتعد عن المائدة.

- هل يمكنني المساعدة؟

أجفلت ماري لسماعها قوله، ثم رفعت عينيها إليه. لماذا تُدهش؟ سيخسر بونر الكثير إذا استثنته جدته من وصيتها! إنها امرأة ثرية وبونر قريبها الوحيد، وإذا كانت شكوك ماري صحيحة، فلا بدّ أن بونر بدّد ميراثه بسرعة ولهذا لم يعد

بإمكانه أن يفقد صداقة جدته ومحبتها، ولهذا السبب أيضاً عاد إلى بلدته.

إبتسمت ميزويتي لحفيدها: «هذه شهامة منك يا حبيبي. إذا لم يكن لديك مانع، أودّ أن أجلس بجانب النافذة، إنه يوم جميل للغاية. كتابي هناك».

وأشارت إلى حيث كتابها على منضدة السرير.

ابتدأت ماري تخلي المائدة محاولة بذلك تجاهل الرجل، وسرّها أن تعلم أنه بات بإمكانها الآن أن تُسقط عن وجهها ذلك القناع الذي تضعه منذ ساعة.

وعندما وضعت كل الأطباق والأواني الفضية على العربة، وقف بقربها قائلاً: «سآخذها إلى المطبخ».

منحته نظرة تصرخ برغبتها في إيذائه، وأنبأها ضيق عينيه بأنه فهم ما تعنيه.

حمل الصينية وسار إلى باب الغرفة المفتوح، بينما استدارت هي إلى ميزويتي التي كانت تنظر إليهما باسمة ثم تشير إليها: «لِمَ لا تذهبين مع بونر في نزهة؟ أنا واثقة من أنه سيستمتع بمرافقة شابة جميلة».

تكلّفت ماري ابتسامة عريضة: «يا لها من فكرة جميلة!».

لكنها في أعماقها، كانت تفضّل أن يدوس على جثتها.

وعندما خرجت من الغرفة، حمدت الله أن بونر لم يكن موجوداً ليسمع هذا الاقتراح البغيض.

عندما وصلت ماري إلى أسفل السلم، ظهر بونر فجأة فكادا يصطدمان. تراجعت خطوة وهي تقول: «كم أنت سريع!».

سألها: «هل كان المفروض أن أغسل الأطباق؟».

تراجعت خطوة أخرى إلى الخلف فاصطدمت بالجدار خلفها: «لا. هذا عمل بولين».

نظر إليها بهدوء، فشعرت في صدرها بتوتر واضطراب. ابتلعت ريقها وهي تحدق إلى عينيه الدافئتين البنيتين وكان تحديقها هذا سبباً لاضطرابها وتشتت ذهنها. حاولت أن تنظر بعيداً، لكن تأثير نظراته المغناطيسي زاد من

ارتباكها.

لم تكن معتادة على هذه المشاعر الغريبة تجاه الناس، لكن هذا الرجل أربكها وأثار فيها الاضطراب والإحباط. وهي تكرهه من كل قلبها. لكن ذلك التململ والضيق في صدرها ليس كراهية، إنما إحساس غريب لا تستطيع تحديده.

وأخيراً، تملكها إرهاق شامل فسألته بصوت أبح: «ما الذي تبحث عنه؟».

قطت جبينه إزاء سؤالها المتبرّم. وتفرس فيها عدة لحظات، ثم وضع راحتيه على الحائط حول جانبي وجهها وهو يتمتم: «أبحث عنك».

أجفلت ولم تجد وقتاً للتصرف، أو حتى للتأكد مما إذا سمعته جيداً فقد لامست يده الصلبة وجهها الناعم ما جعل حواسها تدور. عانقها برقة وحنان فغمرتها مشاعر لذيذة ألهبت النار في عروقها وجعلت قلبها يخفق.

شعرت بأنها عاجزة عن الحراك رغم أنها أرادت أن ترفع ذراعيها لتطوّق بهما عنقه، أرادت أن تحتضنه وتسمع خفقات قلبه على قلبها، لكنها فقدت المقدرة على القيام بأي حركة سوى الارتجاف الذي انتشر في كيانها.

– آسف.

ابتعد عنها فجأة معتذراً عمّا بدر منه، أما هي فلم تستطع إلا أن تحدق به وقد منعها الدوار من أن تقوم بشيء، ثم عاد يقول: «سامحيني... أنا...».

قال هذا بصوت أجش، هازاً رأسه وكأنه غير واثق مما عليه أن يقول.

أثناء ذلك الصمت المطبق، أخذت تحدّق في فكه القوي وعينيه السوداوين. وأخذ الدم ينبض في رأسها بقوة، ما جعل السمع صعباً عليها، وكذلك التفكير. حاولت أن تبدي بعض السخط والتذمر فلم تستطع، ذلك أن أحداً لم يعانقها بهذا الشكل من قبل. ولم تحلم قط بعناق كهذا!

تخلل شعره بيده، وقال والعذاب في ملامحه: «كان هذا خطأ مني... لا

أظنك تصدقينني إذا قلت لك إنني لم أفعل شيئاً كهذا من قبل!».

ربما لم تسمع جيداً حينذاك، وربما لم تكن حواسها في حالة جيدة، لكنها سمعت قوله، وكان على صواب. فهي لم تصدق ذلك.

هل يظن هذا الفتى العابث القادم من بوسطن حقاً أن أكذوبته تلك ستنجح في محو سمعته السيئة؟ مهما بلغت مهارته في التمثيل... ؟ هل يظن أنه من السهل عليه أن يخدعها لمجرد أنها فتاة بسيطة؟

احتقارها له جعل منها على الأرجح تحدياً بالنسبة إليه. فكان ذلك العناق مجرد لعبة قاسية من جهته أما بالنسبة لها فكان اختباراً ينسف العقل. تمنت لو أنها لم تعرفه قط. جاهدت لتخفي دموعها ثم اتجهت إلى المطبخ حيث تنحنحت ثم قالت ساخرة محاولة دس الفولاذ في كلماتها: «ومن... من أكون أنا حتى أرتاب في صدقك؟».

٣ ـ هدية

لم يستطع تاغارت أن يصدق ما فعل. لقد عانق ماري أومارا. من الطبيعي أنها لم تصدقه حين قال إنه لم يفعل شيئاً مثل هذا من قبل. وعلى كل حال، هو اسمه الآن «بونر ويتني ويترينج الرابع» زير النساء. على الأقل هو كذلك بالنسبة إلى مدينة ويترينج، كولورادو.

نظر تاغارت إلى السلم حيث عانق ماري منذ لحظة فقط. لم يستطع أن يطرد صورة ملامحها المصدومة من ذهنه، ولا بشرتها المتوهجة ولا العينين المتألقتين بالعداء والألم. لماذا هذه المرأة بالذات؟ وما الذي جعل تأثيرها بهذا الحجم الذي لم تصل إليه امرأة في العالم... منذ أناليزا؟

ما أكبر الفرق بين المرأتين! إنه بقدر الفرق بين الليل والنهار. الدكتورة أناليزا لنكستر، جراحة الأطفال اللامعة المحنكة الرؤوف الكيّسة على الدوام. بينما هذه ماري أومارا الممرضة القروية الفظة التي ربما لم تبتعد عن هذا المكان أكثر من أميال لا تستغرق ساعة بالسيارة.

النساء اللاتي عرفهنّ بعد موت أناليزا كنّ مثقفات جداً وراقيات للغاية. ومثال على ذلك «لي ستانتون»، شريكته في مكتب المحاماة، التي ندم على علاقته بها لاضطراره لرؤيتها يومياً في المكتب، خصوصاً عندما رفضت أن تصدّق أن علاقتهما انتهت.

ولا واحدة من تلك النساء مع كل ثقافتهن ونشأتهن الراقية، يمكن مقارنتها بماري أومارا من ناحية تأثيرها عليه. نظر باتجاه الباب الأمامي، مصمماً على

www.elromancia.com

التواري لفترة، غاضباً من نفسه وهو يتمتم صارفاً بأسنانه، بأن عناقه لها ليس حتماً الطريقة اللعينة التي ستقف في وجه انجذابه إليها، لا سيما وأنه يقع في الحب بسرعة.

وكان محظوظاً بالنسبة إلى أناليزا، فقد وقعت هي أيضاً في حبه بسرعة وعنف. أما كل الباقيات، منذ وفاة زوجته، فلم يعنين له شيئاً، وكنّ لمجرد التخفيف من وحدته، وليس حباً أبداً.

دس يديه في جيبيه عابساً، ثم سار بخطوات واسعة في الطريق المتعرج المنحدر المؤدي إلى المدينة والذي لا يعدو طوله النصف ميل مشياً على الأقدام. كان قد ذهب إلى هناك هذا النهار. ولكن لم يكن لديه خيار سوى الذهاب إلى هناك مرة أخرى اليوم. إذا استمرت الأمور على هذا الشكل، عليه أن يتعرف جيداً إلى المدينة لكي يبقى بعيداً عن ماري وعينيها المغناطيسيتين.

حاول أن ينبذ ماري من ذهنه بالتركيز على مشاهد المدينة. كانت ويترينج نموذجاً لكثير من البلدات المستكينة بين الصخور، المحاطة بالجبال المكللة بالثلوج. جال في رحلة بهيجة بين البيوت التراثية الحجرية المستكينة جنباً إلى جنب مع البيوت العصرية المزخرفة بالجص وخشب كاليفورنيا الأحمر.

سار تاغارت نحو الشارع الرئيسي، غير مكترث للمتاجر المصطفة على الجانبين. وفجأة، خرج شخص من متجر إلى أمامه مباشرة فلم يستطع تجنب الاصطدام به، وما لبث أن أدرك أنها امرأة فأمسكها من كتفيها لكي يحول دون سقوطها على الأرض: «آسف. لم أنتبه...».

أزاحت المرأة شعرها الطويل الأسود عن عينيها ونظرت إليه. أوشك أن يدرك من الابتسامة التي ابتدأت بالظهور على وجهها أنها ستقول له شيئاً مثل، ليس ثمة مشكلة... أو أنها بخير، ولكن عندما عرفته تبدّلت ملامحها إلى العبوس. وعندما رأى من الغضب في عينيها ما ينبيء بانزعاجها، تركها. وبعد أن تبادلا، للحظة، نظرة حادة كالسكين، حوّلت انتباهها إلى الرصيف. تبع نظراتها فلاحظ الكيس الذي وقع منها. انحنى ليلتقطه في نفس اللحظة التي

انحنت هي فيها للغرض نفسه فتلامست يداهما، وقالت بلهجة عدائية: «هذا لي!».

تركها ووقف: «آسف يا ماري. أنا لم أرك».

لم يكن لديه فكرة عن أنها ستكون في البلدة.

كان يتمنى أن يعوّض، بأي شكل، عن ذلك العناق الأحمق. فقال: «اسمعي. لا أستطيع الإعتذار بما يكفي بالنسبة لذلك الأمر».

جمدت في مكانها وكان واضحاً أنها لم تتوقع منه أن يذكر ذلك الموضوع.

- كيف يمكنني أن أعوّضك عن ذلك؟

طرفت بعينيها وأغلقت كيسها: «إنس الأمر».

- هل بإمكاني تقديم فنجان قهوة لك؟

نظرت نحوه وهي تضم الكيس إلى صدرها كطفلة: «يبدو أنك لم تفهم، يا سيد ويترينج».

قالت هذا بكلمات بطيئة موزونة وكأنها تتكلم مع مغفل: «ما يمكنك أن تفعله هو أن تبقى بعيداً عن نظري».

شعر بوخزة ألم لتصريحها هذا ولكنه بقي يحدّق بذلك الوجه المغري الذي لا يمكن مقاومته.

- هل سمعت ما قلته لك؟ قالت هذا قاطعةً عليه تأملاته.

انتفض: «نعم، سمعت».

ثم أخذ يفكر في حجة تبقيها معه فقال: «أريد منك خدمة».

- تريد خدمة مني؟

ابتسم بجفاء: «أعرف أنه يصعب عليك تصديق ذلك... ولكن الأمر يتعلق بميزويتي».

كانت على وشك الرحيل، ولكن عند سماعها بذلك، وقفت مكانها فأدرك أن مخاطرته نجحت، لأن ماري تفعل أي شيء لأجل ميزويتي. تقدمت إليه وقد

كسا وجهها الانزعاج وعدم الثقة. لم يكن بحاجة إلى قدرة خارقة، لقراءة أفكارها.

سألته متوترة: «ماذا عن ميزويتي؟».

قال وعلى وجهه ذلك التعبير الموحي بالرزانة والثقة الذي يظهر به في المحكمة عندما يطلب البراءة لموكّليه: «اليوم هو الثلاثاء، وعيد ميلاد ميزويتي هو الخميس، وأنا لم أشتر لها هدية بعد».

وبسط يديه وقد بدا عاجزاً.

- أتساءل إن كان بإمكانك أن تساعديني بما أنك تعرفينها جيداً.

لم تحاول أن تخفي اضطرابها. ولاحظ التوتر في عينيها. نظرت بعيداً وهي تسوّي حقيبة يدها: «حسناً... أظن... لأجل ميزويتي...».

شعر برغبة في الابتسام لكنه لم يفعل، بل أومأ قائلاً: «أقدّر لك هذا.. هل نذهب من تلك الناحية؟».

أومأت، جاعلة نظراتها إليه مختصرة.

سألها وهو يبطىء الخطى ليجاريها في مشيتها: «ماذا تظنينها تحب؟».

رافقته إلى الشارع الرئيسي، ضامة حقيبتها إلى صدرها. لو كان يقودها إلى المشنقة لما بدت أتعس حالاً. وبعد فترة طويلة أجابته برزانة: «ميزويتي لا تحتاج إلى الكثير لتكون سعيدة، بعض الاهتمام يفعل الكثير».

وألقت عليه نظرة ذات معنى.

فبادلها النظرات: «إذا كان يسعدك أن تذكريني بأخطائي، فاستمري. ولكن عليك أن تعلمي أن هناك شيئاً يسمّى الذوق».

فانفجرت بضحكة قصيرة ساخرة: «الذوق؟ أنت؟ لقد أمضيتُ سنتين طويلتين أحاول أن أحضرك إلى هنا. إذا كنتُ قد تعلمت شيئاً طوال ذلك الوقت، يا سيد ويترينج، فهو أن الذوق يضيع سدى فيك».

وجهة نظرها كانت صائبة فيما يختص بذوق بونر وفي النهاية كان هذا هو

السبب الذي اضطرّها للمبالغة في وصف أزمة ميزويتي الصحية.

حوّلت نظراتها إلى الأمام غاضبة ولم يستطع أن يتصوّر ما الذي أشعل فيض الغضب فيها. أتراها غاضبة من نفسها لأنها كذبت بالنسبة لصحة ميزويتي؟ لقد توقع منها أن تخجل قليلاً من هذا على الأقل.

يبدو أن تذكيرها بإهمال بونر جعلها تنفجر بسرعة، فهي لا تشعر بالذنب لكذبها بشأن صحة ميزويتي وإشرافها على الموت.

قرر من أن الأفضل أن يغيّر الموضوع... كي لا يجن جنون ماري، وتغير رأيها بشأن مساعدته.

- ما رأيك أن أشتري لها بعض الإسطوانات، لاحظت أنها تحب الاستماع إلى الراديو.

نظرت إليه متأملة: «نعم، أظن ذلك سيعجبها».

عندما سارا في شارع البلدة الرئيسي أشرقت الشمس عليهما دافئة مريحة، وهب الهواء رقيقاً نقياً. كانت حركة السير في الشارع خفيفة، والمتسوقون لا يتجاوزون أصابع اليد، يسيرون ويتكلمون ضاحكين. لوّح عدد منهم لماري بمودّة فكانت تجيبهم بنفس الابتسامة الودود. ووجد تاغارت نفسه يحاول أن يحصل على لمحات من ابتساماتها.

وعندما اقترب منهما شخص على الرصيف، ناداها بصوت أجش: «ماري، هل سأراك في حفلة عيد الميلاد؟».

فأجابته وهي تلوّح له باسمة: «بكل تأكيد يا جيك».

- الرقصة الأولى لي لأنني لن أحصل على مراقصتك بعد ذلك.

ضحكت فكان لإيقاع ذلك تأثير لطيف. وعندما مر بهما الشاب، نقل نظره إلى تاغارت بعداء واضح فلم يعلم تاغارت ما إذا كان الحقد الذي رآه في نظرات جيك هو بسبب سمعة بونر الشائنة، أم أن أي رجل يسير مع ماري أومارا سيحصل على نظرات قاتلة من الرجال غير المحظوظين؟ أوما تاغارت

باختصار دون أن يبتسم، هو أيضاً، شاعراً نحو ماري بنوع من التملك، لا يمكن تبريره.

عداء هذا الغريب الواضح نحوه جعله يهتم بالمارّة. وسألها: «هل سيكون هناك رقص في حفلة عيد ميلاد ميزويتي؟».

– نعم. قد لا تستطيع ميز ويتي الرقص، لكنها تريد أن يمرح الضيوف.

كان صوتها قد فقد مرحه الودود بعد أن عادت تتحدث إليه.

– فهمت.

في الواقع، فهم أن ماري لن توافق على الرقص معه، مهما فعل.

أخذ يتأمل وجوه المارّة وكان معظمهم يرتدون بناطلين الجينز والقمصان المقفلة أو قمصان العمل ولم تكن النساء متبرجات. كان سكان هذه الجبال بسطاء متواضعين، يفيضون صحة وحيوية، لا يضمرون سوءاً لأحد.

قال: «يا لهذه البلدة!».

– هذا غريب.

شتم نفسه لزلّة لسانه هذه. ما أسرع نسيانه! المفروض أن يكون من هذه المنطقة. نظر إليها، وارتسمت على فمه نصف ابتسامة ساخرة: «أعني يالهذه المنطقة المملّة».

وكان هذا كذباً، فقد أحب ويترينج حقاً.

وتابع قوله: «الحمد لله أنني لا آتي إلى هنا كثيراً».

فهزت رأسها وهي تنظر إليه: «هذا محزن... أنت غريب حقاً، أتعلم هذا؟».

فقطب حاجبيه: «ماذا تعنين؟».

كان على ملامحها لمحة توسل تقريباً: «تقول إنك لن تعود».

أدرك ما تعنيه، فعندما يترك البلدة ستعود ميزويتي مرة أخرى وحيدة

مهجورة من قريبها الوحيد. لم يعرف بماذا يجيب، فهو ليس بونر ويترينج على كل حال، والله وحده يعلم ما إذا كان بونر سيتمكن من العودة، حتى ولو أراد ذلك. ذلك أن محاكمته ستقرر ما إذا كان سيمضي السنوات العشر القادمة في السجن. وقرر تاغارت أن يخفف الوضع بشيء من المراوغة: «سأبذل جهدي لكي أعود».

بدا واضحاً من التعبير الذي كسا وجهها أنها لم تصدق ما قاله. فتحت فمها لتتكلم ثم عادت فأطبقته، إذ شعرت أن الإدلاء برأيها ما هو إلا مضيعة للوقت.

* * *

عندما أسرعت ماري إلى البلدة للتسوق، ظنت أنها ستتخلص بذلك من بونر ومن ذكرى عناقه الذي هزّ سكينتها النفسية، خصوصاً بعد أن أمضت السنتين الماضيتين وهي تتعلم كيف تحتقره.

يا لسخرية القدر! لقد اعترض طريقها في الوقت الذي كانت تنشد فيه البعد والوقت لتحلل مشاعرها. حتى بعد أن اصطدم بها، تلهفت إلى الابتعاد عنه، لكنه ألقى عليها موضوع هديته إلى ميزويتي ذاك. وإذا كان هناك شخص لا يمكنها إنكاره، هو ميزويتي، حتى ولو استدعى ذلك احتكاكها بهذا الحفيد العابث المتملق... هل كان متملقاً حقاً؟ لقد مرّت عليها لحظات أوشكت فيها أن تعجب بالرجل. حسناً، ليس إعجاباً بالضبط، ولكن... نعم... لعدة أجزاء من الثانية أعجبها الرجل. لقد قرأت في مكان ما أن العينين هما نافذتان إلى الروح. لماذا إذن، وهي تنظر إلى عيني بونر ويترينج، حيث المفروض أن ترى الأنانية والظرف الرخيص، يتملكها الذهول وهي ترى ما يبدو أنه إخلاص عميق وأسف صادق للطريقة التي عامل بها جدته؟ أم أن الحقيقة هي، ببساطة، أنها من السذاجة بحيث لا ترى الذئب الذي يختبيء في ثياب الحمل التي يلبسها؟

أمسك لها باب المتجر لتدخل أمامه. وعندما أصبحا في الداخل سارت بحركة آلية إلى مكان ما تريد شراءه. ولم تدرك أن بونر يقف بجانبها إلا بعد أن

أصبحت في قسم الألعاب تتفحص الدمى. نظرت إليه بارتباك: «ظننتك ستذهب إلى قسم الأجهزة الموسيقية؟».

تفحص مجموعة الدمى، ثم عاد باهتمامه إليها: «ظننت أن هذا المكان هو ما كنا نقصده».

وأمسك بدمية ترتدي ملابس نجمة أفلام والتسلية في وجهه: «لا أظن أن هذه أسطوانة موسيقية».

كانت تنظر إلى الابتسامة الوشيكة والمرح في عينيه والنشوة تسري في عمودها الفقري. وحوّلت بصرها بسرعة: «عيد مولد أختي الصغيرة في الثالث من آب. تكاد تموت لكي تحظى بدمية تمثل «ملكة هوليوود».

نظر إلى الشعر البلاتيني للدمية التي ترتدي ثوباً رسمياً: «أهذه هي؟».

- نعم، إنها «الراقصة الأولى» ملكة هوليوود.

ضحك ساخراً بصوت خافت مشحون بالكهرباء ما جعل قشعريرة تسري في كيانها. وقال: «لم تكن بين من حصلتُ عليهن».

- ولِمَ لا؟

وعضّت لسانها لسؤالها هذا، كيف جرؤت على الاهتمام به؟

أعاد الدمية إلى مكانها: «من التاسعة حتى الثامنة عشرة ذهبت إلى مدرسة داخلية، فاحسبي».

وجدت نفسها تبتسم، لكنها سرعان ما عادت إلى الجد: «حسناً، لقد نسيت، ولكن... ألم تكن مدرستكم تقيم حفلات راقصة للاحتفال عند التخرج؟».

- للاحتفال بالتخرج كانت مدرستنا تناولنا الشهادة ومغلفاً صغيراً نضع فيه مفاتيح غرفنا. كان ذلك مؤثراً حقاً.

قال ذلك متهكماً، فابتعدت لتتأمل الدمى المعروضة. لم تكن تنوي أن تتبادل ذكريات الطفولة مع هذا الرجل.

أمسكت بالدمية ونظرت إلى ثمنها.. خمسة وثلاثين دولاراً. تنهدت وأعادتها إلى مكانها. الأشياء الجميلة غالية الثمن. إنها تدفع أي شيء في سبيل أن تشتري لبيكا دمية مبهرجة حقيقية... ترتدي ثوباً متألقاً وتاجاً لامعاً وكل ما يرضي أحلام فتاة صغيرة. لم يكن في حياة بيكا كثير من الأفراح والبهجة.

- ألديك أخت صغيرة؟

أومأت، مقاومة الدافع الذي تملكها للنظر إليه: «بيكا عمرها خمس سنوات».

وتناولت دمية أخرى ترتدي ثوباً قطنياً بسيطاً منقوشاً بالأزهار فكانت أرخص ثمناً.

- هل يعيش أهلك في هذه البلدة؟

- لا، ...

ونظرت ناحيته، لماذا ما زال هنا؟ كان صعباً عليها أن تختار ما يناسب ميزانيتها ورغبتها في جعل حياة بيكا أجمل دون وجوده الذي يشغل بالها: «في الواقع، مات أبي عندما كنت في الخامسة عشرة، فتزوجت أمي مرة أخرى بعده بسبع سنوات من رجل اسمه جو لكنز».

كانت تحاول أن يكون حديثها عفوياً، لكن كرهها العنيف لزوج والدتها كان واضحاً: «ماتت أمي بعد مرض دام عامين».

وتملكتها غصة تعودتها كلما تذكرت أمها، تلك المرأة الطيبة التي لم يحالفها الحظ في الحياة: «بيكا تعيش مع أبيها في عربة في مجمع للمقطورات في طريق جانبي في الناحية الأخرى من بلدة ويتيرينغ».

فقال: «هذا مؤسف للغاية».

قطبت جبينها بارتباك. هل يقرأ الأفكار؟ هل لاحظ مدى كرهها لكون بيكا الصغيرة تعيش مع جو لكنز؟ ذلك السكير الذي يعيش مع صديقة جديدة كل أسبوع؟ كانت تبغض فكرة أن تنشأ ربيكا في مثل هذا الجوّ الآثم الفظيع، وسألته: «ما هو المؤسف للغاية؟».

تأملها طويلاً بجد: «فقدانك والديك».

- آه، نعم، ولكن أنت أيضاً مررت بهذه التجربة.

أخذت تقارن الدميتين بجد بالغ يجعلك تظن أن سلام العالم متوقف على خيارها: «آه، اسمع، لماذا لا تذهب لشراء اسطواناتك وجهاز التسجيل؟ لا أريد أن أشغلك».

بقي صامتاً فترة فشعرت بأنه يستوعب طردها له، ثم قال: «بالتأكيد».

لم تنظر إليه وهو يذهب، لكنها سمعت وقع أقدامه. وعندما ذهب، تنفست الصعداء، ثم تهالكت على مقعد خشبي وقد أنهكتها المشاعر، ثم أمسكت في كل يد دمية وأخذت تحدق إلى الأرض بعينين لا تريان.

* * *

جلس تاغارت إلى مائدة المطبخ، وكان لحسن الحظ وحده، لأن بولين خرجت بعد انتهاء عملها اليومي. أخذ ينهش طعامه بذهن شارد. لقد تناول عشاءه مع ميزويتي في غرفتها، لكن مقدار الطعام الذي قُدم إليه كان ضئيلاً جداً وساوره الشك في أن بولين قدمت له عمداً مقداراً قليلاً حتى تضطره إلى الذهاب إلى المطبخ طلباً للمزيد فتستفرد به. أما ما لم تدركه بولين فهو أنه لم يصبح محامي دفاع عن عبث. إنه يعرف كيف تفكر العقول المراوغة، ولذا لم يدخل المطبخ إلا بعد خروج الطاهية. وأثناء تناوله الطعام عادت أفكاره إلى عصر هذا النهار في ذلك المتجر. لقد جاءت إليه ماري أخيراً في قسم الإلكترونيات لتساعده في شراء الإسطوانات وأنواع الأغاني التي تظن أنها ستعجب ميزويتي.

وعندما أخرج محفظة نقوده، تذكّر في الوقت المناسب ألاّ يستعمل بطاقته المصرفية، فسحب عدة أوراق مالية. وعندما دفع، صدر عن ماري ملحوظة غريبة، إذ قالت باشمئزاز: «يا لكل هذه النقود! إنها أنستني لحظة من أنت وماذا تكون».

ثم استدارت وخرجت شامخة دون كلمة أخرى، ولم يرها بعد ذلك إلا أثناء

تناوله العشاء معها ومع ميزويتي. تبادل الحديث والابتسام مع ماري حتى أنهما ضحكا معاً عندما أخبرتهما ميزويتي بعض القصص عن طفولتها. لقد حجب تصرفها الودود كل كراهيتها له. وكان واثقاً من أن تمثيلها هذا يكلفها جهداً بالغاً، ولا يعني هذا أنه هو أيضاً لم تتوتر أعصابه، ولكن ذلك كان لسبب مختلف جداً.

وأخذ يرشف قهوته، مفكراً بمدى كراهية ماري نحوه، ولكن بعد التفكير أدرك أنها لا تكرهه هو بالذات، وإنما تكره من تظنه هو. ولكن أين الفرق؟ فإن الوقوع في الحب لم يكن في حسابه.

رن جرس هاتفه الخليوي، قاطعاً عليه أفكاره. «إنها لي غريماسين». وضع فنجان القهوة من يده، آملاً أن يكون اتصالها عن العمل: «مرحباً، لي...».

- مرحباً. لا يبدو في صوتك الحماسة.

وكان التهكم في صوتها فأجاب: «آسف يا لي، أنا متعب فقط.

- أنت، متعب؟ لم أكن أظنك تعرف معنى هذه الكلمة؟

وضحكت بدلال وتابعت: «هل كنت تتسلّق الجبال طوال النهار؟».

فقال بصوت فاتر: «هذا ما أفعله الآن. وفي الواقع، أنا متعلق بصخرة بيد واحدة».

فعادت تضحك: «كم أنت ظريف، حبي».

يبدو أن «لي» لم تستوعب بعد أن علاقتهما انتهت ولا شيء بينهما سوى العمل.

قرر أن يغيّر الموضوع بسرعة ونظر حوله ليطمئن إلى خلوّ المكان ثم سألها: «أخبريني يا لي، عما حدث بقضية «مارغوليس».

لم يبد في صوتها السرور لتغيير الموضوع، لكنها محامية جيدة، وهكذا أنبأته بآخر الأخبار.

بعد أن استوعب كلامها، قال: «إذا انتهى الأمر بدفع غرامة فقط دون

سجن، سأعتبر ذلك نصراً لنا».

سمع صوتاً فنظر باتجاهه. كانت ماري تدخل وتمد يدها لتأخذ كوباً. أخذ ينظر إليها وهي تسكب القهوة ولم يكن أمامه من خيار سوى أن يقطع المخابرة: «عليّ أن أذهب الآن».

- آه، حسناً، استمتع بالعطلة.

ابتعدت ماري عن المنضدة حاملة كوبها بيديها ثم نظرت إليه مقطبة، وبعد عدة ثوانٍ من العبوس، أومأ لها محيياً برزانة: «مساء الخير».

كان العجب قد تملكه من عدم اندفاعها خارجة بعد أن سكبت قهوتها.

نظرت إليه بارتياب: «من كان المتكلم؟ محاميك؟».

- ماذا؟

انطلق منه هذا السؤال دون تفكير، ثم سكت فجأة لا يدري ماذا يقول وهو الذي لا يعرف إلى أي حد سمعت.

رشفت قهوتها وهي ما زالت تنظر إليه من فوق حافة الفنجان، وعندما أنزلت الكوب أخيراً قالت: «أنت قلت شيئاً مثل أن دفع الغرامة سيكون نصراً».

- آه، نعم، هذا صحيح. كان ذلك محاميَّ الخاص.

ولم يكن هذا كذباً تماماً... لأن لي هي محامية فعلاً، وقد أرادت، وما زالت تريد، أن تدخل معه بعلاقة شخصية للغاية.

- ألا يتعب محاميك من مداومة إخراجك من مشاكلك بكفالة؟

هز كتفيه قائلاً: «إنه يتقاضى أجره».

هزت رأسها، ولوت شفتيها بعدم استحسان واضح.

نظرت بعيداً لحظة وهي تعض شفتها السفلى، ثم عادت إليه مرة أخرى: «بقدر ما أكرهك، يا سيد ويترينج، أكره المحامين الذين يعيشون من وراء إنقاذ المجرمين».

قابل نظراتها المحتقرة بتعابير جامدة، ولسبب ما، كان عليه أن يعرف أسبابها الخاصة التي تدفعها إلى كره المحامين: «هل سبق وأساء إليك محام بشيء؟».

طرفت بعينيها، وبدا وكأن السؤال سبّب لها اضطراباً، وعندما تابعت التحديق بصمت، قال: «قد تكون سيئاتي كثيرة، لكن الناس يخبرونني بأنني مستمع جيد».

تنفست بعمق وكأنما تستمد القوة: «وإن كنت لا أظنك تهتم حقاً... لكنني سأخبرك فقط لكي تعلم كيف يعيش الناس العاديون... ويحصلون على ما يسمونه بالعدالة. تورط أبي بحادث سيارة. لم يكن الذنب ذنبه، وكانت إصابته سيئة للغاية ولم تكن بوليصة الضمان تكفي لتغطية تكاليف العلاج لذا اضطر إلى رفع قضية. كان محاميه رجلاً عادياً طيباً أما الرجل الذي ضرب سيارتنا فكان ثرياً للغاية فاستأجر محامياً ذا أجر مرتفع ليدافع عنه. كان بإمكان محامي أبي أن يفوز في مجابهة حسنة صادقة، ولكن لم يسبق له قط أن جابه محتالين عديمي الأخلاق.

كان على السيد الغني أن يدفع لأبي تكاليف العلاج، بالإضافة إلى العطل والضرر، لكن محاميه خلّصه من ذلك كله. لكن أبي لم يُشف تماماً قط. تلك المحاكمة غير العادلة لا بد طعنت أبي في قلبه».

لم يدر تاغارت ما يقول فتمتم بلهجة مخلصة: «آسف لما حدث لأبيك. ماذا يمكنني أن أقول؟».

- لا شيء. ليس ذنبك أنك ولدت غنياً. ولكن حاول أحياناً أن تحصل على العدالة من دون مال، وانظر ما يحدث.

لم يتكلم، وأخذ رشفة من قهوته وهو يقاوم رغبة تدفعه إلى أخذها بين ذراعيه.

- ما هي المشكلة التي وقعت فيها وجعلت محاميك المحتال يخرجك منها

بدفع غرامة فقط؟

المحامي المحتال! كان ذلك مؤلماً ولا يعطي صورة جميلة عن مهنته، ومع ذلك، كان هذا أطول حديث دار بينهما خارج غرفة ميزويتي، ولم يستطع أن يتصور سبب هذه الحاجة المفاجئة التي جعلتها تحنث بيمينها بأن تتجنبه كما تتجنب الوباء. أهو نوع من الفضول لمعرفة عقلية هذا الفرد السيء في الأسرة؟

نظر إليها بفضول: «أظنك طلبت مني أن أبتعد عن طريقك؟ ماذا كانت نتيجة الامتحان؟ هل لي أن أجرؤ على التفكير في أنك قررت أن تكتبي سيرة حياتي الذاتية؟».

شبكت ذراعيها على صدرها ونظرت بعيداً. في الواقع هي نفسها لا تعلم لماذا ما زالت هنا: «ليس لدي اهتمام بك على الإطلاق، يا سيد ويتيرينج... أنا فقط... حسناً، ميزويتي مهمة جداً بالنسبة إلي، ولا أريد أن أفكر في أنك ستنتهي بإيذائها أكثر مما آذيتها من قبل. هذا كل شيء».

شعر بطعنة في قلبه. وسألها: «ماذا تعنين؟».

ـ أعني أنني لا أعرف أي نوع من المشاكل جلبته على نفسك أو أيّ نوع من المشاكل ستجد نفسك فيه بعد رحيلك. قلبها ليس قوياً ثم... ثم...

وتهدج صوتها، وغصت بريقها ورآها تكافح لكي لا تبكي... «أنا أتوسل إليك يا بونر.. لا يهمني إن كنت زير نساء أو أخرق ولكن أرجوك ألاّ تفعل شيئاً يضعك في السجن. ذلك سيقتلها».

أزعجه تعنيفها لكنه أخفى ذلك. يا للعنة... هذا كل ما كان بحاجة إليه؟ مزيداً من الضغط. بونر متهم بالتجارة من الباطن، وهو، يبذل كل جهده ومهارته القانونية في سبيل تخليصه من العقوبة.

وضع يده فوق يدها يعتصرها مشجعاً. لم يخطر في ذهنه من قبل لمسها بهذا الشكل... فقط شعر بحاجة إلى مواساتها وتخفيف مخاوفها: «ماري، أنا...».

وسكت.. ماذا يستطيع أن يقول؟ أن تأثيرها عليه لم يعرفه في امرأة أخرى منذ أناليزا. نعم. سيكون هذا شيئاً رائعاً، وهو يكاد يسمع هذا الحديث يدور بينهما:

(أنت تجنينني، يا ماري... لم يتملكني الأمل قط في أن أحب امرأة أخرى كما أحببت أناليزا. لكنني، منذ عرفتك، أشعر وكأنني أحترق.

كذبت عليك منذ اللحظة التي عرفتك فيها. فأنا لست بونر. أنا محاميه... نعم، ذلك المحامي المحتال الذي تكرهينه أكثر مما تكرهين بونر نفسه ولكن إذا استمريتِ في هذه الكراهية، حرّريني من تأثيرك وسحرك قبل أن أجّن كلياً).

نعم يا تاغارت... هذه خطبة ممتازة.

تفحص وجه ماري. هاتان العينان الرقيقتان الرزيتان الحزينتان والشفتان الفاتنتان. هل على كل تعبير على وجهها، وكل حركة تقوم بها، أن تعذبه بهذا الشكل؟

تعلقت عيناها الذاهلتان بعينيه، متسائلتين. ولسبب ما، بدت أقل غضباً، وأقل استياء. وسألته هامسة: «ماذا.. يا بونر؟ ماذا كنت تريد أن تقول؟» وكان وجهها من القرب بحيث شعر بدفء أنفاسها.

كان من المستحيل عليه أن يتذكر ما كان أوشك أن يقوله، كل ما يعرفه أنه يمسك بيدها... هذه اليد التي لم تسحبها بعد من يده. ماذا يمكنه أن يقول؟ ما الذي يطمئنها؟ إنه غير واثق من أن بونر لن يذهب إلى السجن. حتى أنه غير واثق من أن الأمور لن تسوء في أي لحظة، وأن أمره سينكشف إذا حدث ذلك ولن يستطيع أن يضمن لها أن صحة ميز ويتي لن تتدهور.

خفضت بصرها إزاء نظراته الثابتة ونظرت إلى يده التي تمسك يدها، ثم همست: «لماذا هذا الصمت الطويل؟ لماذا هذا التردد؟».

لامست نظراته وجهها، والشعر الأسود المنسدل على كتفيها. شم رائحتها الناعمة المثيرة... إنها بالغة الجمال، بالغة التعاسة، تلهف إلى أن يأخذها بين

ذراعيه ويخبرها بأن كل شيء سيكون على ما يرام. لكنه ليس صانع معجزات، ولا منجّماً ينبيء بالمستقبل. إنه مجرد رجل غير كامل سمح لنفسه بأن يتورط في هذا الوضع الصعب، التزاماً منه ووفاء لصديقه.

هذا الصراع الداخلي مزّق أعماقه. ماذا يمكنه أن يقول؟ وأخيراً، وبصعوبة بالغة، وجد صوته، فأجاب: «ماري، لا أستطيع أن أتعهد لك بشيء».

رفعت بصرها إليه. كانت عيناها لامعتين مدهوشتين، بدلاً من أن تكونا حزينتين أو متألمتين كما كان يظن وقالت: «أنا مدهوشة!».

- مدهوشة؟

- مدهوشة، لأنك لم تتعهد.

وأخذت تتفحص ملامحه وكأنها تحاول قراءة أفكاره: «ولماذا تهتم بالصدق؟».

فهم ما تعنيه. لماذا لم يخفف عنها بكذبة رقيقة؟ وعلى أي حال، بونر الذي تعرفه لا يمكن الاعتماد عليه، فهو يلقي الوعود الفارغة دون تردد أو ندم.

لأنني لست بونر. إننا شخصان مختلفان تماماً! ماري أومارا، أنت أذكى مما تعلمين! وتعب من الاحتيال والهزل، فترك يدها، مدركاً أن لا خيار له غير هذا، واستند إلى الخلف: «لا بد أنه الجوّ الخانق. لا تقلقي يا آنسة أومارا. سأعود إلى طبيعتي سريعاً جداً».

قال هذا ساخراً، فانتصبت فجأة، ثم شبكت أصابعها ونظرت إليه ببرودة.

تخلل شعره بأصابعه، ومنح نفسه دقيقة يخلي بها ذهنه من تأثير قربها منه ولمسه لها، وليعالج أمر عدائها المتجدّد، ويا لها من مهمة شاقة مؤلمة، خصوصاً بعد ما رآه منها مؤخراً... وهو شيء في عينيها... شيء جديد مناقض لكل منطق.

* * *

استلقى تاغارت في سريره محدقاً في السقف. بدا له النوم ترفاً يعود إلى الماضي الذي لم يعد يتذكره بوضوح، نظراً لما حصل عليه منه منذ وصوله إلى هنا. فعدد الساعات التي نام فيها لم يكن يتخطى عدد أصابع اليد الواحدة.

راح يفكر في ماري التي كانت تتوسل إليه أن يرأف بصحة ميزويتي ويبتعد عن انغماسه في حياته السيئة تلك. لمَ تكره بونر إلى هذا الحد؟ صحيح أنه نزق سريع الغضب، لكنه ليس دنيئاً على الأطلاق.

ولكن في النهاية لماذا يهتم لرأي ماري أومارا فيه؟ ولماذا لا يكف عن التفكير في هذه المرأة؟ إنها ترى في بونر الشيطان مجسداً، ومحاميه هو توأمه الشرير. وبما أنه لا يستطيع شيئاً في هذا الصدد، عليه أن يخرس وينام. وحيث أن التحديق في السقف لا ينفع شيئاً انقلب على جنبه وأغمض عينيه، علّه يجد إلى النوم سبيلاً.

وما لبث أن سمع طرقاً خفيفاً على نافذته.

رفع نفسه على مرفقه وهز رأسه. أتراه يحلم؟

سمع الطرق مرة أخرى، فجلس ووجّه انتباهه إلى نافذة غرفته الجانبية. وذهل وهو يرى هيئة رأس وكتفين وراء الزجاج. يالله... غرفته هي في الطابق الثاني: من يمكن أن يكون هذا الطارق؟

وألقى بغطاء السرير وقفز واقفاً.

سار إلى النافذة ونظر إلى الخارج. تباً! إنها بولين الطاهية العاشقة. سألها من خلال الزجاج: «ماذا تفعلين؟».

فنادته بصوت منخفض: «دعني أدخل، يا بونر. أسرع أخشى ألاّ يستطيع هذا اللوح الخشبي حملي أكثر من ذلك».

وهكذا فتح النافذة مكرهاً، مدركاً أنها تفضّل أن تجثم هنا حتى ينهار بها اللوح الخشبي ويرسلها إلى حتفها، بإرادتها. وقبل أن يقول شيئاً، ألقت بنفسها بين ذراعيه. كاد يقع لكنه استطاع أن يحتفظ بتوازنه، فقال عندما طوقته بذراعيها: «ما هذا؟ ماذا تظنين نفسك فاعلة؟».

فضحكت: «إذا كنت أنت لا تأتي إليّ، آتي أنا».

رفع ذراعيه لينزع يديها من حول رقبته. ماذا يفعل بهذه المرأة؟ لقد تعلم، طوال نشأته في المدرسة الداخلية، أن يعامل المرأة باحترام بالغ، وأن يتجاهل أي تصرف خشن أو غير مهذب يصدر عنها. ولكن لابدّ أن المدارس المبالغة في اللياقة، والكليات المتزمتة لم تعرف أي امرأة مثل بولين بوردو.

تطاولت على أطراف أصابعها، ولامست ذقنه: «لم أستطع أن أنام. كدت أموت وأنا أفكر في أنك هنا.... وحدك. وهكذا اضطررت إلى التسلل والتسلّق إلى هنا لأتأكد من أنك لست وحدك».

قبض على معصميها يرغمها على تركه، قائلاً: «هذا حس اجتماعي حسن منك».

ثم وضع ذراعه حول كتفيها واتجه بها نحو الباب: «شكراً لزيارتك يا بولين، لكن الوقت متأخر وأنا...».

تنفس بعمق محاولاً أن يتذرع بالصبر، ثم قال: «أنت امرأة رائعة الجمال، يا باولين، وشخص ممتاز. عدا عن كونك طاهية ماهرة للغاية وأنا أكنّ لك فائق الاحترام والإعجاب».

- أحقاً؟

من الواضح أنها لم تكن تتوقع أن يخرجها من غرفة النوم التي غامرت في سبيل الوصول إليها. وهبط بها تاغارت السلم وهو ما زال مستغرقاً في مديحه لها: «بكل تأكيد، لا أستطيع أن أخبرك كم يفتنني إتقان المرأة وخصوصاً... جسارتها».

- جسارتها؟

سألته وهما يصلان إلى قاع السلم، نظرا إلى المدخل الأمامي فلاحظ النور المتألق فيه ما يجعله مكشوفاً للغاية. وسرعان ما استدار متجهاً إلى الباب الخلفي.

- نعم، جسارتها. جسارتك أرهبتني.

واستدار بها حول الزاوية نحو المطبخ. كان المكان مظلماً للغاية حتى لم يكد يرى يده أمام وجهه، فأخذ يبحث عن زرّ الضوء، آملاً أن يطفىء النور رغبة بولين الفظيعة.

سألته: «ما معنى كلمة (جسارة)؟».

- معناها رباطة الجأش، الثقة بالنفس، الشجاعة.

كان قد وصل بها إلى الباب الخلفي تقريباً عندما ضربت الأرض بقدمها ووقفت: «آه... ظننت معناها شيئاً مثل... مثيرة».

اللعنة! كان على وشك النجاح.

- حسناً، يا بولين، أنا أجد، بصراحة، أن الشجاعة ورباطة الجأش والاعتماد على النفس أمور مثيرة.

فأشرق وجهها: «هل تمزح؟».

- لا، لا أمزح.

فدفعت بذراعيها حول عنقه وهي تضغط عليه بجسدها بشكل مثير وتبتسم له بإغراء: «أنت أكثر إثارةً مما كنت أظن».

كان يفقد صبره بسرعة. ماذا عليه أن يفعل ليتخلص منها؟ هل يحملها ويلقي بها خارجاً؟ هي ليست قبيحة إطلاقاً ولكن يكفي أنها ليست ماري أومارا، وهذا هو المهم، وتاغارت يريد ماري... يريدها في قلبه، وفي بيته.

واهتز جسمه وكأنما بصاعقة أصابته، ما هذا الذي فكر فيه؟ وقطب جبينه، كان يعني أناليزا لا ماري أومارا. كان يريد أن تعود إليه أناليزا. وسرعان ما اكتسحه الألم وتملكه دوار، وتشتت ذهنه.. لكنه ما لبث أن هز نفسه مجاهداً للخروج من هول الذكرى، نابذاً الألم والاضطراب. عليه أن يعالج مشكلته الحالية.

فقال وهو يزن كلماته بحذر قدر استطاعته: «أخشى أنك أسأت فهم ما

عنيته بقولي إن صفات الشجاعة والإعتماد على النفس مثيرة».

تجاهلت قوله وأجابته بصوت أبح: «كفى كلاماً، وعانقني».

صرف بأسنانه، ودون أي إنذار مسبق انحنى وحملها بين ذراعيه.

فأخذت تضحك بنشوة: «آه، يا لك من مستبد».

لم يخطر ببالها أنه حملها لأن هذه الطريقة هي الأنسب لإخراجها من المنزل.

وعندما كاد يصل إلى الباب، إذا بإحساس غريب يتملكه فجمد مكانه. وأنبأته لمحة مضطربة من جانب عينه بأن ما توقعه كان حقيقة.

كانت ماري أومارا تقف جامدة عند عتبة الباب.

٤ ـ فراشة اللهب

كانت ماري تحدّق ذاهلة غير مصدقة إلى المشهد الفاسق الذي يحدث في المطبخ. صحيح أنها تعرف جيداً سمعة الفتى العابث بونر السيئة، ولكن أن تراه بهذا الشكل الفاسد في العلن، هو أكثر فحشاً من أن تستوعبه.

حدّق تاغارت باتجاهها. أتراها شهقت؟ صرخت؟ لم يظن ذلك، لكنه، بشكل ما، علم بوجودها. بعد ذلك بلحظة، خرج من الباب الخلفي، حاملاً بولين التي كانت متشبثة بعنقه وهي تضحك بمكر بصوت خافت. أغمضت ماري عينيها لكن المشهد بقي يحرق ذهنها.

لم تعرف كم مضى من الوقت قبل أن يعود. فقد كانت مخدّرة الاحساس، مسمّرة على العتبة.

عندما دخل وأغلق الباب، تلاقت أعينهما. لم يكن باسماً ولا عابساً. كانت أساريره جامدة وكأنه لم يكن في الخارج إلا لاستنشاق الهواء النقي. أومأ برأسه: «مساء الخير».

هل هذا كل ما ينوي أن يقوله؟ هل لديه الجرأة لأن يتصرف وكأن شيئاً لم يكن؟

لم تكن تنوي أن تتظاهر بأنها لم تر شيئاً. ولكن كان عليها أن تشغل نفسها بشيء لتخفي اضطرابها. فتوجهت إلى الموقد وراحت تبحث عن إبريق في الخزانة المجاورة. سارت إلى الثلاجة وأخرجت منها علبة حليب سائل وسكبته في «الإبريق» ثم وضعته على الموقد. كانت تشعر بنظراته تنصب عليها لكنها

www.elromancia.com

رفضت الاعتراف بوجوده. وبعد ذلك صفقت باب الثلاجة بعنف فتصاعدت جلبة قلقلة الزجاجات من الداخل.

سألها بهدوء: «ماذا تفعلين؟».

فأجابت وما زال ظهرها إليه: «ماذا يبدو لك أني أفعل؟ أعبث مع الطاهية في المطبخ؟»

وعضت شفتها السفلى بقوة. لماذا قالت ذلك؟ وأغمضت عينيها بشدة ثم دعت الله أن يمنحها القوة لتختفي.

فقال باتزان: «لم أكن أعبث مع الطاهية في المطبخ».

بقيت مغمضة العينين. رباه لماذا فتحت هذا الموضوع الذي كانت تريد أن تبقيه مقفلاً؟ ذكر ذلك المشهد... لم يكن في ذهنها على الإطلاق؟ كانت قررت أن تجيبه بأنها تعزف على البيانو. فماذا حدث لتغير ذلك؟ فتحت عينيها وحدقت في «كسرولة» الحليب وقالت: «لا يهمني ما كنت تفعله».

لم تشأ أن تتكلم أكثر خوفاً من أن يتهدج صوتها. كيف تجرؤ على الشعور بالغيرة؟ بونر لا يستحق أن تكن له أي امرأة شعوراً صادقاً.

- تسللت بولين إلى غرفة نومي. وعندما جئت أنت، كنت أنا أتخلص منها.

غالبت دموعاً غبية في عينيها، ثم أحكمت شدّ روبها حولها: «هذا حقاً لا يهمني».

وأخذت تكرر في داخلها: (هذا حقاً لا يهمني... هذا حقاً لا يهمني... هذا حقاً لا يهمني...) حتى كاد هذا الصوت يصمّ أذنيها.

ابتلعت ماري ريقها محاولة التخلص من الغصة التي في حلقها. وكافحت شعورها العنيد بالغيرة ومن بولين بالذات، وقالت بصوت أبح: «أنتما متماثلان بشكل رائع».

ساد صمت عميق بينهما. وأخيراً سألها: «ما الذي كنا نفعله؟».

رغم أن سؤاله كان هادئاً، رنّ في ذلك الجمود الكئيب أشبه بفولاذ يصطدم بفولاذ.

قفزت، واندفع نظرها من الحليب المتصاعد منه البخار إلى الجدار الفيروزي اللون فوق الموقد. ضغطت على قلبها يداً مهدئة، ثم استعادت ذلك المشهد الذي في ذهنها: «لا تتصنع القداسة فقط لأني دخلت بينما كنتما تستعدان للعمل».

- نستعد للعمل؟

وكانت ضحكته عميقة ساخرة سرت في كيانها مسرى الكهرباء.

أطفأت ماري نار الموقد وسكبت لنفسها فنجان حليب ساخن. فسألها: «هل بقي شيء؟».

نظرت إلى داخل «الإبريق» بكآبة. كان نصف ممتلىء وكانت في حالة نفسية من الحسد والعداء بحيث لم تهتم بالإسراف حين سكبت الحليب في «الإبريق». وأومأت إيجاباً.

- هل لك أن تسكبي لي شيئاً منه؟

تناولت بصمت، فنجاناً عن الرف وسكبت له بقية الحليب.

- هاك.

ودفعت إليه بالفنجان، ثم جلست وفنجانها أمامها على المائدة. وبعد لحظة، تذكرت، بفزع، ما كاد يحدث هنا: «أوه...» ووقفت، ودفعت الكرسي إلى مكانه تحت المائدة فاحتك بخشب الأرض الصنوبري، بينما استدارت هي تواجه حوض الغسيل: «لا أظنني سأتمكن مرة أخرى من تناول طعامي في هذا المطبخ مكانه».

فقال بضجر: «كفى سخافة».

أنبأها احتكاك الخشب بالخشب بأنه كان يجلس. أخذت تنظر إليه وهو يرشف الحليب. بدا الإرهاق حول عينيه، لكن نظراته ما زالت مغناطيسية،

وقد تدلت خصلة من شعره البني الأحمر المموّج على جبينه الذي غضّنه التعب أو ربما حظه العاثر، كما يبدو.

أراح ساعديه على المائدة. جذب نظرها اتساع كتفيه رغم استرخائه. وكان صدره الفسيح يرتفع وينخفض مع تنفسه. إنه بامتياز جسم شاب عابث يجذب النساء كما تجذب النار الفراشة... بالغ الجاذبية والإغراء إلى حد يجعل المرأة، كما الفراشة، تتجاهل الخطر المقترن به.

كان يحيط فنجانه الساخن بكفيه بينما بقيت نظراته مسمرة على الحليب الساخن. ورغم ما يبدو عليه من إرهاق وعبوس، كان حضوره رهيباً إلى حد وجدت ماري نفسها تسحب كرسيها وتجلس عليه، أشبه بتلك الفراشة التي تحوم حول اللهب، معرّضة نفسها للخطر. كان لهذا الرجل قوة سحرية، وهذا هو التفسير الوحيد الذي وجدته لسبب جلوسها بجانبه في المطبخ حيث كان هو وبولين، منذ لحظات.

دفعت هذه الفكرة إلى زاوية عميقة من ذهنها وأخذت ترشف الحليب، غير قادرة على منع نفسها من أن ترمقه خلسة بصمت. كانت مشاعرها خليطاً من الشكوك الكئيبة والفضول الذي يدفع قلبها إلى الخفقان. بدا من التعبير الراسخ على وجهه، أنه ذهب بعيداً مع أفكاره حتى إنها لا تظنه يدرك وجودها في الغرفة. ومع ذلك، كانت لديه المقدرة على سحبها، حتى فصلها عن الزمان والمكان، مثله هو.

أثار الجلوس بالقرب منه اضطرابها ومشاعرها معاً. ماذا حدث لماري المتزنة، الموضوعية ذات الجلادة والصبر، التي تعرف الفرق بين الحق والباطل، بين الظلم والعدل؟

ماذا حدث لماري الواثقة من أن بونر ويترينج هو مجرد حشرة أنانية؟؟ لقد عرفت هذه الحقيقة الدامغة عنه من خلال مراسلاتهما الكثيرة غير المثمرة. إلى أن لفّقت تلك الكذبة عن تفكير ميزويتي في حرمانه من الميراث.

لماذا إذن، عندما تنظر في عينيه، لا ترى الرجل الذي تعرفه؟ لماذا تظن أنها

ترى في أعماقهما لمحات من الحكمة وهمسات غامضة من المزايا النبيلة؟

وتفحصت وجهه بحيرة. كانت ملامحه منيعة وشفتاه متصلبتين، وقد أسبغ فكه المتوتر حوله هالة مثيرة.

بينما هو غارق في أفكاره العميقة، غير واعٍ حتى إلى وجودها، كانت هي تتفحص عينيه. أين هو ذلك الفاسق؟ أين يكمن الثعبان الأناني الذي قام بهذه الرحلة ليستميل جدته بمعسول كلامه فلا تحرمه من الميراث؟ لقد عرفت ماري كل حيله ومراوغاته، عرفت مزاياه السوداء كما تعرف اسمها.

رغم كل هذا، لم تستطع أن ترى أمامها سوى رجل متأمل منهك... رجل حائر لأمر ما. لم تكن تظن قط أن رجلاً مثل بونر يبدد لحظة واحدة في تفكير جاد. خصوصاً إذا كان ذلك التفكير في متاعب أو أحزان.

أنهت حليبها وخبطت الفنجان على المائدة. كون هذا الرجل يملك عينين تستطيعان أن تخفيا مزاياه المتقلبة المراوغة، ليس سبباً يجعلها تؤخذ به!

طرف بعينيه منتبهاً من تأملاته. نظر إليها فرآها عابسة: «ماذا؟».

- اشرب، لا فائدة من البكاء.

قطّب حاجبيه وكأنه لم يفهم قولها. فأشارت إلى الحليب: «اشرب الحليب. إنه يساعدك على النوم».

بدا الألم في تقطيب حاجبيه ونظر إلى فنجانه ثم عاد ينظر إليها: «لا أؤمن بالنوم. إنهم يمنحونه أهمية أكثر مما يستحق».

وتخلل شعره بأصابعه.

- لماذا طلبت الحليب إذن؟

تساءلت عما يجعلها تبقى بعد أن أنهت حليبها. كانت بحاجة إلى النوم وتخاف أن يبطل مفعول الحليب المهدىء إزاء منظر بونر المثير وعينيه المذهلتين.

- لماذا طلبتُ الحليب؟

كرر سؤالها هامساً وكأنما يتأمل، ونظر إلى فنجانه ثم هز رأسه. وبحثت عيناه

الغامضتان عن عينيها: «أظن... لا أدري لماذا...».

قال هذا بعدم حيوية فأحست بأنه يكذب، لكنها لم تعلم ما إذا كان يكذب عليها أم على نفسه.

نهض عن المائدة مستنداً إلى يديه: «تصبحين على خير، يا آنسة أومارا».

قال ذلك من خلال فكين مطبقين، وقبل أن يبتعد اشتبكت نظراتهما، وفي لحظة، امتلأ ذهنها بصورة لا تُنسى لرجل ذي إرادة حديدية في بلوغ هدفه... لكنه يتألم، لأن شياطين في أعماقه تمزقه.

وبعد أن خرج من المطبخ بقيت دقيقة كاملة عاجزة عن النفس.

* * *

كانت حفلة عيد ميلاد ميزويتي في أوجها، والمنزل يموج بضحك الضيوف وثرثرتهم. أكثر ذكريات الحفلة إشراقاً في نظر ماري، حتى الآن، هي لبونر وهو يحمل جدته بشهامة يهبط السلم إلى غرفة الجلوس. لقد شكّل الإثنان عرضاً مثيراً رائعاً. ميزويتي في ثوب طويل أزرق مخملي، وبونر في بنطلون كحلي فضفاض وكنزة مناسبة أظهرت عضلاته الضخمة وهو يدخل جدته الباسمة إلى غرفة مليئة بالأصدقاء المصفقين.

أغمضت ماري عينيها بشدة، مرغمة الذكرى على الابتعاد من رأسها. نظرت إلى ساعتها محاولة التركيز على العمل. كانت التاسعة. ألقت نظرة في أنحاء غرفة الجلوس التي تغص بالمدعوين.

جلست ميزويتي على كرسيها المدولّب بين مجموعة من المهنئين، ضحكاتها البهيجة كانت مسموعة فوق الأحاديث وموسيقى الرقص التي كانت تملأ الجوّ.

تفحصت ماري الراقصين الذين كانوا يتمايلون على الموسيقى الرخيمة، وبينهم بونر ومراهقة تضحك بصوت خافت. كان حفيد ميزويتي قد أمضى وقتاً طويلاً في حلبة الرقص. وكان على ماري أن تعترف بأن معظم رقصه كان نتيجة

دعوات من غيبات أسرة ويترينج اللاتي تتراوح أعمارهن ما بين الثامنة عشرة والثمانين. ويبدو أنهنّ جميعاً وجدن سحر أسوأ أقربائهن سمعة من الصعب مقاومته. ولاحظت ماري أنه عامل كل من راقصها بشهامة حقيقية.

كانت الأنوار خافتة والجو شاعرياً لكن لم تكن ماري تشعر بأيّ من هذا. فبالإضافة إلى اضطرارها التظاهر بالسرور بوجود بونر في حضرة ميزويتي، أخلّ جو لكنز، زوج أمها، بوعده ولم يسمح لبيكي الصغيرة، أختها غير الشقيقة، بأن تحضر الحفلة، متذرعاً بأنها مصابة بالزكام. كان هذا منافياً للعقل!

كانت ماري قد توسلت إليه بأن تحضر لأخذ الصغيرة حسب الاتفاق، لكن جو أصرّ على أن حضور صغيرته الحفلة لا يناسب صحتها، وعندما طلبت ماري أن تأتي لرؤية الطفلة، أخبرها بأنه والد بيكي وكلمته هي القانون. وأنذرها بأنها تضيّع وقتها سدى في قدومها، لأنه لن يدعها تدخل المقطورة.

هربت ماري إلى المطبخ غاضبة تعيسة لتجد نفسها مع بولين. كل ما كان ينقصها هو أن تبدأ الطاهية في وصف عبثها مع بونر.

كان المطبخ عابقاً بروائح الحلوى والأطعمة التي كانت الطاهية قد أعدتها للحفلة. إنها تعترف للطاهية بميزة واحدة وهي أنها تعشق عملها بقدر ما تعشق الرجال. وللمرة الألف، نبذت من ذهنها ذكرى الليلة الماضية وسارت إلى الموقد تضع إبريق الماء لإعداد البابونج علّه يهدىء أعصابها.

سألتها بولين بكآبة: «كيف تسير الحفلة؟».

استدارت ماري ونظرت إليها، ثم سارت إلى المائدة وسحبت كرسياً جلست عليه: «الحفلة رائعة والطعام ممتاز».

وأشارت إلى قطعة الحلوى التي لم تأكل بولين سوى نصفها: «هل أنت متوعكة؟ لا تقولي إن الحلوى لم تعجبك».

جثمت بولين على المائدة وأسندت وجهها بيديها: «أنا لست جائعة».

نظرت ماري إليها متأملة: «أنت تحبين الحفلات في العادة، خصوصاً عندما يكون هناك رقص. اخرجي وامرحي قليلاً وسآخذ مكانك هنا حتى تعودي».

نظرت بولين إليها عابسة: «لا أستطيع. صينية البيتزا ما زالت في الفرن».

لم تشأ ماري أن تتطفل، لكن هذه المرأة الحزينة التي لا تستطيع أن تأكل من اللذائذ التي صنعتها، ليست بولين التي رأتها تقفز فرحاً في هذا المطبخ في ساعات الليل المتأخرة الليلة الماضية فسألتها: «ماذا حدث لك؟ لا أريدك أن تكوني كئيبة».

فتنهدت المرأة: «أعلم هذا، إنه بسبب بونر».

شعرت ماري بوخزة حادة في قلبها. وإذ لم تشأ أن تسمع هذا، قالت: «آه.. إذا كان الأمر خاصاً...».

استندت بولين إلى الخلف وقالت: «لا بأس، فأنت رأيتنا... هنا. أنت تعرفين ما حدث».

ورفعت رأسها تنظر إلى السقف: «رأيتني كيف كنت أتصرف بحماقة بالغة».

أجفلت ماري: «هذا غير صحيح، يا بولين. فأنا لم أره يصدّك عنه».

نظرت بولين إليها، ثم عضت شفتها وأجابت: «بل صدّني بلطف، ولكن عندما ألقى بي في الخارج قال بكل رقة إنني جذابة لكنه... لكنه يحب امرأة أخرى، ولهذا لا يستطيع...».

وهزت رأسها وعادت تنظر إلى السقف: «عرفت أنه كان يطردني... لم أر يوماً رجلاً عابثاً يصدّ امرأة...».

ثم سكتت وأغمضت عينيها.

كانت ماري لا تزال تحاول أن تستوعب ما كشفته بولين عن رفض بونر لها. ولم تعرف ما عليها أن تقول لكي تخرج هذه المرأة من كآبتها. إنها تتذكر جيداً

عناق بونر، ولكن طبعاً ذلك لم يكن يعني شيئاً له.

هذه الفكرة أقلقتها... عذّبتها، ليس لأنها ذكرتها بعناق بونر الذي لم تذق مثله في حياتها فقط بل أيضاً بمبلغ اختلاف مركزيهما. رغم أنه بدد ثروته، إلا أنه ولد في العز والرفاهية، وتلقى ثقافة أوروبية في أرقى المدارس الداخلية، وطاف في العالم، وكان عشيقاً لأميرات وممثلات وعارضات أزياء. بينما هي، ماري، ولدت ونشأت في أكواخ مدينة ويترينج الخربة، وكبرت وهي ترتدي ملابس رخيصة رثة، ولم تسافر إلى أبعد من «دينفر».

ولكن، سواء كان لدى بونر مزايا هامة غير هذه أم لا، فهو لم يجد في معانقتها ما ينافي القواعد الخلقية. ربما تذكر بعد ذلك أن وفاءه لتلك المرأة التي يحبها لا يتضمن معانقة النسوة الأجيرات مثلها، مهما كان تصرفه ذاك لا يعني له شيئاً.

انحنت بولين إلى الامام وهي تتنهد، وتناولت شوكتها ثم أخذت تهرس قطعاً من الحلوى. تملّك ماري العطف عليها فلمست ذراعها: «بولين، أنت امرأة رائعة. أنت عاطفية وسخية وواضحة، كما أنك أفضل طاهية في هذه المدينة. أنا واثقة من أن السيد ويترينج كان صادقاً معك. ربما هو سيء السمعة لكنه كان صادقاً معك وهو في النهاية إنسان وبإمكان الإنسان أن يقع في الحب».

نظرت بولين إليها بعينين لامعتين وقد كسا الألم ملامحها، فتابعت ماري، متعلقة بالأمل: «ربما ليس بإمكانه أن يشعر بذلك الحب الأبدي العميق الذي يشعر به معظمنا، ولكن من المطمئن أن نعلم أن بإمكانه أن يكون مخلصاً».

كان صعباً على ماري لفظ الكلمة الأخيرة لتصف بونر لكنها فعلت ذلك رداً لكرامة بولين المهدورة: «والآن إذهبي واغسلي وجهك وسأهتم أنا بالبيتزا، ولا تدعي الليلة الماضية تفسد عليك الاستمتاع بالحفلة. هذا الرجل لا يستحق ذلك، صدقيني. اذهبي إلى هناك وارقصي ودعيه يراك بأحسن حال. لا تغذّي غروره».

طرفت بولين بعينها وسألتها بإبتسامة واهية: «أتظنين ذلك؟»

بدت، بسؤالها هذا، كطفلة صغيرة، فأجابت ماري: «بل أعرف ذلك».

أطاعتها بولين ووقفت وهي تمسح دموعها: «معك حق، ولكن ماذا لو كان كاذباً؟».

- أراهن على أنه لم يكن يكذب.

وكانت ماري تحاول أن تبدو مقتنعة بذلك. ربما كان الرجل يحاول أن يكون مخلصاً. ثم استدارت لتواجه بولين مرة أخرى: «أراهن على أنه كان يحاول أن يكون شريفاً. لا بد أن امرأة مسكينة في بوسطن قد سرقت قلبه الصغير المتقلب لشهر أو شهرين. يمكن لهذا أن يحصل».

وسارت إليها تشدّ على ذراعيها محاولة أن ترفع معنوياتها. وخطرت لها فكرة مفاجئة: «تعلمين أن جوسونيسن في الحفلة. أتظنينه يداوم على المجيء إلى المطبخ لأنه يحب الماء إلى هذا الحد؟».

كان لبولين معجبون في البلدة، وتذكيرها بذلك لن يضرّ بشيء.

مرّت الطاهية بيدها على شعرها: «إنه لطيف معي... حسناً، أظنني سأذهب إلى الرقص».

- اذهبي، وسأنتبه أنا إلى البيتزا.

- شكراً، يا صغيرة.

ومنحتها أول ابتسامة حقيقية، فشعرت ماري بالسرور هي أيضاً.

بعد دقائق، أخرجت ماري البيتزا من الفرن ثم أضافتها إلى غيرها من الأطعمة اللذيذة في غرفة الطعام.

أعدّت لنفسها كوباً من البابونج، ثم تهالكت على كرسيها أمام المائدة حيث أخذت ترشف الشراب، وسرعان ما انتبهت إلى أنها كانت تنشد من شراب البابونج هذا نفس معجزة التهدئة التي كانت تنشدها من فنجان الحليب الليلة

الماضية والذي أخابها كلّياً، لأنها لم تنم قط.

سمعت باب المطبخ يُفتح فرفعت بصرها وإذا بالاضطراب يتملكها وهي ترى بونر يقف عند العتبة. غريب أن يتمكن من الظهور في الحفلة بوجه زائف ساعة بعد ساعة، ولكن في اللحظة التي لا يعود فيها مطلوباً ليقوم بدور ضيف الشرف الساحر، يُسقط القناع عن وجهه وكأنه يحرقه. وهي تتصرف مثله طبعاً، فكلاهما يقوم باللعبة نفسها ولكن لسببين مختلفين للغاية.

ابتلعت ريقها وأومأت، محاولة الحفاظ على اتزانها: «نعم؟».

استند إلى إطار الباب الخشبي، ساحراً إيّاها كعادته بقوة عضلاته: «هناك رجل اسمه سام يقول إنه حان دوره معك في هذه الرقصة. وطلب مني أن أبحث عنك!».

- وماذا حدث لمهارة سام في التحري؟

فرفع حاجبيه: «هل تريدينني أن أساله؟».

هزت رأسها وهي تتنهد. حان الوقت لتنسى جو لكنز وقسوة قلبه وتعود إلى الحفلة. ربما يساعدها الرقص مع سام على تخفيف قلقها.

- سأذهب حالاً.

زم شفتيه وأومأ ثم ذهب، وانغلق الباب خلفه بصمت. شعرت بدوار غريب. ضغطت راحتيها على المائدة مائلة عليهما. كيف استطاعت أن تسمح له بأن يؤثر عليها بهذا الشكل وذلك بنظرة واحدة؟ هي لم تر في عينيه أي مشاعر تزيد عن اللامبالاة، ومع ذلك، ها هي ذي تجلس هنا أضعف من أن تستطيع الوقوف! أخذت نفساً مرتجفاً، عالمة أن لا خيار أمامها سوى العودة إلى الحفلة.

بعد أن تنفست عدة مرات بعمق، استطاعت أن تقف. استدارت حول المائدة المحاطة بالضيوف الذين كانوا يملأون صحونهم باللذائذ. وعندما عبرت

الردهة، لاحظت بولين وجو جالسين على درجات السلم وقد اقترب وجهاهما الباسمان الواحد من الآخر وأخذا يتهامسان، غافلين عن الحفلة الدائرة حولهما.

لطالما كانت ماري تكنّ المودّة لجو. كان ذلك الميكانيكي خجولاً، ولطيفاً للغاية. ويبدو أن لهذا الرجل الطويل النحيل الأصهب تأثيراً كبيراً على الطاهية. وعندما مرت ماري بجانبهما، كانت بولين تضحك بصوت خافت وهي تربت على ركبتيه. وشعرت ماري بأن جو سيحظى هذه الليلة بوقت ممتع للغاية.

دخلت غرفة الجلوس واتجهت نحو المكتبة في الخلف. كان المكانان متصلين ببابين مفتوحين على اتساعهما. لم تر بونر على الفور ما أشعرها بالارتياح، لكن المحزن أن ارتياحها كان قصير الأمد. ذلك أنها قبل دخولها المكتبة اصطدمت به وهو يرقص مع إحدى سيدات المدينة. كانت السيدة المسنة تثرثر بينما هو يبتسم لها، شاغلاً بال ماري بما بدا عليه من رعاية واهتمام وروعة. وتساءلت عما إذا كان يستمع حقاً إلى المرأة، ثم عادت فأنبت نفسها لاهتمامها به.

تفقدت ميزويتي، قبل أن يعثر عليها سام ويدعوها إلى باحة الرقص. كان سام رجلاً مكتنز الجسم حسن المظهر ذا لحية قصيرة أنيقة وعينين زرقاوين باسمتين. كانت تميل إليه وتعرف أنه يميل إليها. لكنها لم تكن تشعر نحوه بتلك الجاذبية الشاعرية التي تعلم أنه يريدها أن تشعر بها، وكان ذلك مؤسفاً. فهو يملك معرض ويترينج للفنون. وكان هو نفسه فناناً موهوباً وكان قد تزوج ثم طلّق، ولديه ولدان في كاليفورنيا. إنه يريد أن يتزوج مرة أخرى، وسيكون زوجاً جيداً بالنسبة إلى فتاة قروية ليس لديها أي طموح للعيش في مكان غير هذه الجبال الرائعة الجمال.

بينما كان يديرها بين ذراعيه، حاولت أن تبدو مسرورة بحديثه. ولكن، لسوء الحظ، كان ذهنها مصراً على معرفة المكان الذي كان ذلك الرجل الحقير قليل الشأن بونر ويترينج يرقص فيه.

تغيرت الموسيقى لكن سام لم يدعها تذهب، وعندما ابتدأت الأنغام العذبة تنسجم، ارتفع حولهما التصفيق والضحكات ثم أدركت ماري أن بونر ويترينج قد رفع ميز ويتي من كرسيها ثم أخذ يدور بها في باحة الرقص وهي بين ذراعيه.

تعلقت المرأة العجوز بعنقه وهي تضحك مرحاً وهو يدور بها برقصة الفالس الواسعة الخطى في أنحاء القاعة. بيما وقف بقية الراقصين، بما فيهم سام وماري، جانباً، تاركين الساحة لصاحبة العيد وحفيدها. تأبطت ماري ذراع سام بشكل تملكي لم تكن تشعر به. ربما تعلقها بسام هو رغبة دفينة في وعيها الباطن في أن تدع بونر يعلم أنها هي أيضاً لديها معجبون. هذه الفكرة جعلتها تشعر بالذنب. إنها تشعر بالمودّة الفائقة نحو سام، فلماذا تنظر إلى بونر بذلك الشوق السخيف. لماذا تتلهف إليه وهي ترى رجولته الفياضة أثناء رقصه؟ لماذا تتمنى لو كان ممسكاً بها هي، وليس بجدته، بين ذراعيه القويتين؟

كانت ابتسامته ساحقة مهلكة. ورغم علمها بأنها زائفة، خداعة، إلا أنها ما زالت تفتنها وتبعث الوهن في ركبتيها، وربما كان ذلك سبباً آخر يجعلها تتعلق بذراع سام... فقط لكي تستطيع البقاء واقفة.

انتهى الرقص بعاصفة من التصفيق، وأعاد بونر جدته إلى كرسيها ذي العجلات. بدا وجه ميز ويتي متوهجاً، لكنه في أحسن حال. ومع ذلك، قررت ماري أن تطمئن عليها. إعتذرت من سام، وسارت إلى مخدومتها. لسوء الحظ، بقي بونر بجانب جدته التي أمسكت يده بيديها الإثنتين فجعلت ابتعاده عنها مستحيلاً.

قالت باسمة: «آه، يا عزيزتي ماري، قلت لبونر لتوّي إنني أريدكما أن ترقصا معاً».

وابتسمت لبونر بينما كانت ماري تقيس نبض ميزويتي الذي بدا لها متسارعاً جداً. ولكن أي امرأة عاقلة لا تكون كذلك بعد أن تحتضنها ذراعان قويتان إلى مثل هذا الصدر الرحب الرائع؟

أنّبت نفسها على تفكيرها ببونر بهذه الحرارة. ربما خدع بقية نساء الأسرة

بجاذبيته الآسرة، ولكن ليس ماري أومارا.

وكانت ميزويتي تتابع: «إنه راقص رائع. أنا طبعاً خفيفة الوزن وهذا يجعل كل راقص يبدو ماهراً».

وضحكت كصبية صغيرة.

تركت ماري يد مخدومتها مبتسمة لنكتتها رغم أن الشكوك تملكتها في داخلها وأشعرتها بالدوار. الرقص مع بونر؟ لم تخطر لها هذه الفكرة قط... حسناً، ليس في الربع دقيقة الماضية. ونظرت إليه خلسة. وعندما تلاقت نظراتهما بقي مبتسماً، لكن عينيه كانتا قاتمتين غامضتين. ولم تستطع أن تعرف ما إذا كان يكره فكرة رقصهما معاً، أم أن شعوره لا يتجاوز الملل.

وتملّكتها فكرة مرتجلة، فقالت وهي تشير إلى حيث يقف سام: «طبعاً، يا ميزويتي، لكنني وعدت شخصاً آخر بالرقصة أو الرقصتين التاليتين، بعد ذلك حتماً؟ موافق؟».

قالت هذا وهي تنظر إلى بونر ولكن متجنبة عينيه. فأومأ وابتسامته تثيرها بقسوة: «موافق، وأنا متشوق لذلك».

وإذا بسيدة، هي ماكسي أنكل، وكيلة عقارات المدينة تقبض على يده الطليقة: «حان دوري للدوران في الحلبة». وكانت ماكسي بطولها الفارع أطول من كثير من الرجال، ولكن ليس من بونر. جذبته إلى باحة الرقص فأرغمت ماري نظرها على عدم متابعتهما. اعتذرت ثم عادت إلى سام، متمنية لو أنها تشعر بسعادة أكبر لهذا. ومنحها هو ابتسامة عريضة. ومدّ ذراعيه قائلاً بسرور: «هل سأحصل على هذه الرقصة أيضاً؟».

أومأت متكلفة الابتسام: «إذا شئت».

قالت هذا مصممة على أن تتجاهل بونر بكل قوتها.

أخذها سام بين ذراعيه وجال بها في أنحاء الغرفة، وفي منتصف أغنية غرامية، تملّك ماري الضعف وأخذت تبحث عن الفتى العابث. وتقابلت

نظراتهما عدة لحظات متوترة قبل أن تتمكن من تحويل عينيها بعيداً. وتساءلت عما إذا كانت أفكاره تشابه أفكارها... ربما سيكون عليهما أن يرقصا معاً.

وتمنت لو أن قلبها الأحمق لم يخفق لهذه الفكرة.

www.elromancia.com

٥ ـ مفاجأة

اطمأنت ماري إلى ميزويتي التي كانت مستغرقة في نوم عميق، بعد أن انتهت حفلتها. وكانت روبي مديرة المنزل وبولين الطاهية وجو قد رتبوا المطبخ أثناء انشغال ماري بإعداد ميزويتي للنوم. وللتعب البالغ الذي يشعرون به جميعاً، قرروا أن يتركوا إعادة تنظيم الأثاث إلى الصباح.

غادر جو وبولين المنزل قرابة الواحدة والنصف. وبعد ذلك بلحظات، صعدت روبي إلى غرفتها في الطابق الأعلى. تثاءبت ماري ثم أطفأت ضوء الشرفة الباب الأمامية، وخرجت إليها ثم تهالكت على إحدى الكراسي المنجدة. كان بإمكانها أن ترى من مكانها المرتفع بقعاً من الضوء تتخلل الأشجار من أضواء الشارع والأنوار الأمامية للسيارات المارة التي كانت تتوهج بسرعة خاطفة وراء الأشجار.

أراحت ماري رأسها إلى مسند الكرسي الخلفي متمنية لو أنها لم تنشط على مدى الساعات الأربع والعشرين الماضية. كانت بحاجة إلى راحة.. إلى نوم. وتثاءبت مرة أخرى. إنها مرهقة لكن دماغها يلتهب، وخاطبت نفسها بأنها لا يمكن أن تنام ودماغها بهذا الشكل.

دعكت أنفها، غاضبة من نفسها لشعورها بنفس المشاعر الطائشة نحو بونر التي أظهرتها معظم نساء المدينة له أثناء الحفلة. وتنهدت طويلاً، بصوت منخفض محاولة التفكير في شيء آخر، أي شيء يخرج هذا اللهب من رأسها.

رفعت بصرها إلى السماء البادية خلف سقف الشرفة. كانت النجوم

تتغامز، وكانت تبدو طاهرة نقية ما جعل صعباً عليها أن تفكر في أناس أدنياء مثل جو لكنز أو الرجال العابثين الذين يحيكون المكائد، مثل بونر ويترينج، تحت سماء مليئة بالنجوم المتألقة.

عندما كانت صغيرة غالباً ما كانت تهرب في ليالي صيف كهذه، بعد أن ينام والدها، إلى السطح من النافذة لتستلقي ساعات تحدق إلى السماء، متمنية حياة بنفس طهارة وتألق تلك النجوم، في مكان ما خارج «مدينة المقطورات» الكئيبة الموحلة هذه.

نشأتها تلك أثرت فيها جاعلة منها فتاة بالغة العزم. لم يكن أبواها قد أتما تعليمهما العالي، لهذا اجتهدت ماري في دراستها، ولم يكن هناك نقود للجامعة. ومع أنها كانت مرشحة لمنحة دراسية، إلا أن موت أبيها، وتكاليف علاجه الباهظة غير المدفوعة، حتّمت عليها ترك المدرسة لكي تعمل وتساعد أمها النادلة في مطعم.

ومع ذلك، في إحدى تلك الليالي التي كانت تستلقي فيها على سطح المقطورة، أخذت على نفسها عهداً وهو أن تجعل من حياتها شيئاً. وقررت أن تكون ممرضة. أرادت أن تقوم بشيء مختلف. الممرضات يقمن بأشياء مختلفة، إنهن يرتدين ملابس بيضاء نقية، وهن محترمات، وهذا نادر بالنسبة إلى أولاد «مدينة المقطورات». كانت ماري تعلم أنها ستكون ممرضة يوماً ما، وستظهر بالاحترام الذي تتوق إليه. كان ذلك نصف حلمها. أما النصف الثاني فهو أن تأخذ بيكا من وصاية جو لكنز السيئة الخسيسة.

وهكذا، كل ما كانت ماري تريده من الحياة هو أن تصبح ممرضة وتأخذ بيكا لتغمرها بحبها ورعايتها. وعندما استخدمتها ميزويتي وعرفت حلمها هذا، وعدتها بأن تجعلها تعيش دوماً في بيت ويترينج الرائع الجمال.

حتى أن ميزويتي سمحت لماري بإعادة وتزيين غرفة الأولاد القديمة لكي تنام فيها بيكا عندما تزورها. وكانت الغرفة قريبة من غرفة بونر مباشرة. وقد

دهنتها ماري باللون الوردي المناسب تماماً لفتاة صغيرة. مثل هذا المكان مثالي بالنسبة إلى بيكا بجوّه النظيف المحب. . . ما عدا أن جو لكنز لن يوافق أبداً.

شعرت باليأس، وانحنت إلى الأمام تريح مرفقيها على ركبتيها وتضع رأسها بين يديها وهي تتمتم: «أنا بحاجة إلى معجزة».

- حقاً؟

أجفلت، وانتصبت في جلستها على الفور، ثم نظرت نحو الباب الأمامي. كيف خرج بهذا الهدوء؟: «لم أعرف أنك ما زلت مستيقظاً».

لماذا حدث أن يكون هذا هو الرجل الذي كانت تجاهد لكي لا تفكر فيه؟

فأجاب: «لقد أخبرتك بأني لا أنام».

كانت ماري تعلم لماذا هي لا تنام وتساءلت عن سبب عدم نومه، وطبعاً، لن يشبع فضولها أبداً ما دامت لا تنوي أن تسأله.

- أي معجزة تريدينها؟

توهّج وجهها ذلاً. لم تكن تريد أن يسمعها أحد. تصنّعت الهدوء وقالت كاذبة: «معجزة تحيلك إلى عامود من الملح مع طلوع الفجر».

كانت ضحكته ساخرة وهو يقول: «آه؟ سيدهشك أن تعلمي كم من المرات سمعت هذا».

وسمعته يتقدم منها فقالت: «سأكون مرتاحة أكثر مني مدهوشة. ذلك يصلح إيماني بالإنسانية».

حاولت أن تبدو جريئة لكن قلبها كان يخفق بعنف.

سار إلى درابزين الشرفة واستند إليه مشبكاً ذراعيه على صدره. كان يبدو رائعاً. ولم تلاحظ ماري أن القمر كان بدراً إلا بعد أن رأت ضوءه الفضي يضفي مهابة بالغة على كتفيه العريضين. وتملّكها الإحباط وهي ترى المشاعر التي أحدثها مظهره في نفسها، فحوّلت نظراتها إلى السماء بنجومها النقية المهدئة.

- أظن بإمكاننا أن نحصل على تلك الرقصة الآن.

فأجفلت لتعليقه: «نحصل على ماذا؟».

- لقد وعدنا ميز ويتي بأن نرقص معاً.

حملقت فيه وقد صعقها أن يتقدم بمثل هذا الإقتراح الفظيع: «أهكذا؟».

- نعم، هكذا، الوعد وعد.

ومدّ لها يده وكأنه يتوقع أن تأخذها. وهمس نسيم الليل بين أغصان الأشجار. كان الجوّ مفعماً برائحة الصنوبر المزينة بعطر الورد الخفيف الذي تستعمله ميزويتي. تأثير هذه الرائحة المثيرة على ماري لم يكن متوقعاً. على الأقل هذا ما ظنته. كانت يده الممدودة مغرية أكثر من الكلمات، ترغمها على أن تلقي بنفسها بين ذراعيه.

وهتف بها صوت ثائر في داخلها: إنبذي التعاسة وامسكي يده. أنت تعلمين أنك تريدين ذلك! قفي!

ولكنها تحدّت هذا الصوت المتمرّد في رأسها، وقالت: «ماذا؟ الوعد وعد وأنت صارم في حفظ الوعود؟».

- ألست أنت كذلك؟

قطبت جبينها: «ألست أنا. . . ماذا؟».

- صارمة في حفظ وعودك لميزويتي؟

فتحت فمها لتجيب ثم أطبقته. ما الذي يفعله؟ يذكرها بأنها وعدت وأن عليها أن تفي بوعودها؟ وأجابت: «حسناً، كنت فقط. . . كنت. . . أقول لها ما تحب أن تسمعه. لم يكن في نيتي الرقص معك في الواقع».

أنزل يده الممدودة ورفع وجهه بسرعة فانساب ضوء القمر عليه ليبدو كماله إلى حد لا يطاق. «فهمت! إذن، أن تخبريها بما تحب أن تسمع من دون أن تعنيه هو شيء مقبول منك، لكنه مذموم مني وغير مقبول؟»

- نعم!

وسارعت تشرح له الأمر حين أدركت أن جوابها غير منطقي: «لأنني، عندما أفعل ذلك لا أؤذيها».

- هل أنت واثقة؟ كانت تريدنا أن نرقص معاً.

لم يعجبها أن توضع تحت الاختبار، فقالت: «اسمع. سواء كنت بارعاً في مدرستك الخيالية، أو أنك تستمتع بالمجادلة لتكسب قضيتك، فهذا لا يهمني. ما يهمني. هو أنني لا أنوي الرقص معك، لا الآن، ولا بعد الآن».

وخطرت ببالها فكرة: «وأذكّرك بأننا الآن لسنا في محكمة، يا سيد ويترينج».

فسألها: «والآن، من هي التي تخادع لتجعل كذبتها تبدو شريفة؟».

كانت قد اتجهت إلى الباب راغبة بالهرب فوقفت واستدارت تواجهه وقد غاظها تعليقه: «أخادع؟ أنا؟».

رفع كتفه بجواب إيجابي صامت، وقال: «إنها رقصة فقط. آخر شيء قالته ميز ويترينج لي عندما حملتها إلى غرفتها هو أن أعدها بأن أرقص معك ولا أخيّب أملها».

تملك ماري الضيق أثناء الصمت الذي تلا قوله هذا. كانت تعلم أنه يقول الحقيقة، لأن ذلك ما طلبته ميزويتي منها هي أيضاً وهي تضعها في فراشها.

وأخيراً قال: «وقد وعدتها بذلك».

كافحت ماري رغبتها الجامحة في أن ترقص معه. سواء بوعد أم بغير وعد، فقد كانت طيلة الأمسية متلهفة إلى أن يأخذها بين ذراعيه، وقد كافحت ذلك طوال السهرة، وما زالت تتوق إلى ذلك حتى أوشكت على البكاء، لكنها لم تجرؤ على الضعف. فتحت باب الشرفة لكي تسرع في الدخول وإذا برفقة من الموسيقى العاطفية الناعمة تخرج من الباب المفتوح. قطّبت والتفتت إليه: «هل شغّلت الاسطوانة الموسيقية؟».

وكان قد أصبح بقربها... أقرب من أن تستطيع الرفض. كيف استطاع أن

يعبر الشرفة بهذه الخفة؟ وقال: «الرقص أجمل مع الموسيقى».

تباً لهذا الرجل!... إذا لم تتحكم بنفسها بشدة، ربما لن يمكنها..

وتأوهت، مبعدة الصورة الذهنية لما قد تفعله. وتصورت مئة امرأة حمقاء أخرى مثلها قد خضعن إلى نفس المصير مع هذا الرجل. وهي لا تريد أن تكون رقماً إضافياً يزاد إلى تلك اللائحة. عليها ألا تستسلم! حتى ولو إلى شيء بسيط كالرقص. كانت النساء تحدياً بالنسبة إليه، وعليها أن تحتفظ بتلك الحقيقة المحزنة في ذهنها.

استمرت الأغنية، بطيئة مثيرة للغاية، وكانت قد وصلت الآن إلى منتصفها. أرادت أن تصدّه بحزم، وتطعنه في غروره، لكنها وجدت نفسها من الوهن بحيث لم تستطع أن تتلفظ بشيء، فكيف بما يجرحه؟

وابتلعت ريقها، أتراها تضعف؟ أم أنها تواجه حقيقة وعد منها عليها أن تنفذه؟ مشاعرها تتصارع، إلا أن عقلها كان واعياً. سترقص معه، ولكن رقصة واحدة مختصرة وستبقى قوية: «لا بأس ولكن إلى آخر هذه الأغنية فقط».

- هذا يكفي.

واقترب منها فشعرت برعشة كهربائية شملت جسدها. تبدّد تصميمها القوي على التمسك باللامبالاة. لا إنها لن تفكر فيه! وأطبقت فكيها وركزت نظراتها على قميصه، محدثة نفسها بصمت بألاّ تفكر في رائحته أو لمساته... وبأن تبقى بعيدة عنه بجسدها ومشاعرها.

ولتتقذ ماء وجهها، قالت: «لقد تصافينا الآن. فقد رقصت معك فقط لأنني وعدت ميزويتي».

ورفعت بصرها إليه بنظرة آملة أن يرى فيها كل ما تكنه من اشمئزاز لرقصها معه.

لمعت عيناه في الظلام بمكر وهما مسمرتان عليها: «أحاول أن أكون كل ما تريده ميزويتي في حفيدها».

همس بذلك بصوت اكتسحها كموجة ساخنة مهدئة. وقاومت جاهدة تأثير ذلك. وتملكها القلق، ولم تستطع أن تتنفس جيداً: «يجب أن أعترف بأن تمثيلك دور «الرجل الشهم» كان ممتازاً».

وتشتت ذهنها فجأة. أتراها قالت ذلك بصوت مرتفع؟ هذه فكرة لم تكن تريد أن تعلنها.

منحها ابتسامة كشفت عن أسنانه اللامعة. وكان هذا أكثر مما تستطيعه. فشعرت بوهن في ركبتيها.

همس وهو يلامس وجنتها: «مديحك الباهت هذا لي لن يعجّل في خروجك من هذا، يا آنسة أومارا».

حاولت أن تتجاهل سحره، ففشلت. كان يمثل، في تلك اللحظة، كل ما تطلبه في الرجل. يا للجنون! وتملكها اليأس والإشمئزاز وهي تفكر في أن الفتية العابثين يصبحون عابثين بهذه الطريقة.

- ظننت أن أختك الصغيرة ستكون في الحفلة؟

قال هذا ليخرجها من أفكارها فكادت تشكره لذلك. وأومأت: «هذا صحيح. لكن جو قال إنها مصابة بالزكام ولن يمكنها ذلك».

- هذا مؤسف.

رفعت بصرها فتلاقت نظراتهما. لم يعد يبتسم الآن بل بدا عليه الإخلاص، فقالت وقد بدا غضبها على جو: «بل أكثر. لم تكن بيكا مريضة ولكن جو سافل وحقده يدفعه دوماً لأن يفرق بيننا. هذا ظلم منه، فقد كانت بيكا متشوقة إلى حضور الحفلة وذلك منذ أسابيع».

صمت بونر متأملاً والرزانة في ملامحه. وحوّلت هي عينيها عن وجهه وقد أقلقها صمته وتفكيره الهادىء. أما حان لهذه الأغنية الغرامية أن تنتهي؟

- أتريدينني أن أتحدث إليه؟

ومرة أخرى أجفلت وتملكها القلق لقوله هذا: «من تعني؟».

- والد بيكا.

- لماذا؟ أتظن أن شهرتك تمنحك نوعاً من السلطة على جو؟ أنا أعرف أنك مغرور للغاية، لكنني لم أتصور أنك تظن نفسك مخلوقاً متفوقاً!».

- أنا لست مغروراً إلى ذلك الحد، لكنني معروف بقدرتي على الإقناع.

فبان الألم على وجهها: «سمعتك ليست سراً كبيراً. أنا أعرف أنك، بظرفك، يمكنك أن تقنع أي شخص بأن يفعل ما تريد. لكنني أعرف جو جيداً، وعليّ أن أقول إن عناده يتفوق على ظرفك. لذا إبقَ خارج الموضوع، لأنك، فقط، ستزيد الأمور سوءاً».

أومأ، ورأت عضلة تتوتر تحت فكه. أتراها أصابت فيه وتراً حساساً؟ وتملكها شعور بالذنب. عرض عليها العون فردّت عليه بحدة وانتقاد. وافترضت أن ليس هناك شخص سيء مئة بالمئة، ومن ضمنهم بونر ويتيرينغ: «إسمع، أنا آسفة. أنا واثقة بحسن نيتك، لكن جو عنيد، وأنا خائفة من أنه سيعاقبني مع بيكا لذلك، ويريد إبعادنا عن بعضنا البعض، إذا هو شعر بضغط ما...».

فقال بهدوء: «فهمت. إنسي ذلك».

كان ضوء القمر يغمر وجهه وإذ كانت غير جاهزة لهذا الجمال الذي أسبغته الأشعة الفضية على ملامحه الوسيمة، لم تستطع إلا أن تحدّق إليه وقلبها يخفق. وبحثت عن أي شيء قبيح فيه تركّز عليه نظراتها، لكنها لم تجد شيئاً، سوى عينين سوداوين جريئتين وملامح تخلب اللب.

ما رأته في ملامحه من تأثر حاد في ضوء القمر، مسّ قلبها، وجعلها تتجاوز تعهدها بأن تمنع نفسها من التأثر بلمساته ورائحته ورقّته.

وفجأة، كانا يتعانقان، فقد ظفرت ماري برغبتها الحمقاء الصامتة. كان عناقه رقيقاً كالعناق الأول الذي ما زال يحترق في ذاكرتها. وملمس يديه لم يكن يشابه أي شيء كانت تتوقعه من هذا الرجل المغرور الأناني الذي لا يصلح

لشيء. وساورها شعور غريب بأنها لم تعد واقفة على أرض صلبة، وأنها تطفو في الأجواء كسحابة تسوقها الريح، لكنها ليست ببرودتها... فقد كانت السخونة تمتلكها.

الجزء العقلاني منها الذي كانت قد أزاحته جانباً بقسوة، أخذ بالإحتجاج، لكن الجزء الذي كان يغلي ويرتجف شوقاً دفع بالعقل والمنطق بعيداً بعزيمة بالغة.

لكن الخوف من أن يسبب لها تصرفها ضرراً لا يمكن شفاؤه، جعل الجزء العقلاني منها يصرخ مستجيراً محتجاً، مذكراً إيّاها بدوافعه الخسيسة وخداعه الأليم.

ما الذي تفعلينه، بحق السماء، يا ماري؟

ذُعرت من نفسها لهذا الانحدار العقلي السحيق، وأخذت تدفعه بصدره بشدة وهي تصرخ بتعاسة: «إذا كنت تظن أن استيلائك عليّ سينفعك عند ميزويتي، فأنت مخطىء! رأيي لن يتغيّر!».

كانت تدرك سخافة قولها، لكنها لم تستطع الإعتراف بذلك. كان التفكير في ذلك فظيعاً.

أخذت تبتعد متعثرة، متراجعة بشكل أعمى حتى صدّها درابزين الشرفة، فتشبثت به غريزياً لكيلا تقع أرضاً.

أطلق من خلفها شتيمة خافتة ورأت أنها تستحق ذلك، فأشاحت بوجهها عنه واتكأت على الدرابزين كيلا تنهار.

أغمضت عينيها بشدة وهي تلعن نفسها. كيف أمكنها القيام بعمل أحمق كهذا؟ وهي العاقلة!

هي عادةً حازمة منطقية التفكير، صافية الذهن. لكن تفكيرها حالياً مشوّش متناقض.

تمالكت نفسها قدر إمكانها، آمرة صوتها ونبضها بالهدوء: «أتعلم، يا سيد

وينرينج... أنت ممتاز للغاية، وأنا معجبة بك».

ساد صمت طويل إلى حد تساءلت معه عما إذا كان قد رحل.

وأخيراً قال: «معجبة بي؟ كلّي فضول لمعرفة ما أعجبك مني».

رفضت أن تواجهه، فذلك عمل غير حكيم. حتى ولو لم تكن متأثرة به إلى هذا الحد، فهي لا تظن أن بإمكانها أن تنظر في عينيه مرة أخرى: «أنت أكملت صورة الرجل الحديثة التي لا يمكن للنساء مقاومتها».

كان السكون مخيماً فحاولت التمسك باتزانها الهش. فقال: «إذا لم يكن لديك مانع، سأحتفظ بالحكم على إطرائك هذا قبل أن أشكرك».

اخترق سكون الليل زعيق بومة محزن، تلاشى صداه الكئيب مبتعداً قبل أن يعود بونر فيقول: «ما هي صورة الرجل الحديثة بالضبط؟».

أخذت نفساً عميقاً لتستجمع مشاعرها وقوتها الجسدية وساعدها عدم النظر إليه على أن تقول: «إنها نفس صورته القديمة. الأمور المتعلقة بالمنزلة الإجتماعية مثل المال والسلطة ولكن ممتزجاً بالإحساس والتأثر. الأمر الوحيد هو أن على الإحساس أن يكون حقيقياً. وأنا أقسم أحياناً، عندما أنظر في عينيك، أنني أصدق في الواقع...».

الهستيريا التي كانت تغلي في أعماقها طفت إلى السطح مرة أخرى، فضحكت عالياً. كم هي حمقاء! كل ما ظنته إحساساً في عينيه ما هو سوى تمثيل. «أظن كل العابثين الناجحين لديهم تلك الموهبة حتى أنك، جعلتني لدقيقة، أصدقك!».

وصرفت بأسنانها، مصممة على أن تعني ما تقول: «بينما في الواقع لا أستطيع أن أحتملك».

- لكنك تفضلينني على وكيلي المحامي، صح؟

لم تعرف كيف يمكن لهذا أن يكون أمراً هاماً، لكنها لم تجد سبباً للإنكار: «إنها مسألة حظ، ولكن نعم أظن ذلك».

كان جوابه ضحكة دون بهجة وقال ساخراً: «شكراً. هل هناك مصل مضاد للحقد، أم أنني أقف هنا فقط حتى يسودّ كل شيء».

ـ قف حيث تشاء فهذا لا يهمني.

لكن تهدّج صوتها كان يدل على أنها لم تكن لامبالية بقدر ما تريد أن تبدو.

وإذا بضوء ينصبّ عليهما مباشرة قبل أن تلتف السيارة خلف الأشجار.

كان صوت العجلات فوق الأرض المبلّطة بالحصى مرتفعاً في هذا السكون. وتساءلت ماري: «من يا ترى...؟».

ولم تكمل جملتها.

- ربما أحد ضيوف الحفلة نسي شيئاً.

فقال ساخراً: «أليس من حسن الحظ أننا ما زلنا مستيقظين».

انتصبت واقفة وظللت عينيها، بينما توقفت السيارة بجانب سيارة بونر المستأجرة، ولحسن الحظ انطفأت أنوارها مع وقوف المحرك، وعاد العالم مظلماً هادئاً مرة أخرى.

انفتح باب سائق السيارة وخرج منه شخص. وناداهما صوت نسائي: «عجباً عجباً... لم أتوقع قط أن ترحّب بي لجنة الاستقبال عند منتصف الليل».

اقتربت المرأة من الدرجات الأمامية، فرأتها ماري بوضوح. كانت طويلة رشيقة في الثلاثين من عمرها تقريباً، ترتدي بذلة عمل أنيقة مزركشة، وشعرها قصير بنفس اللون. عندما صعدت الدرجات أخذت تلوّح بيدها مبتسمة لبونر، وكشف ضوء القمر في وجهها عن جمال غير عادي.

تشبثت ماري بالدرابزين وقد توترت أعصابها وانتابها شعور بالكفاح أو الرغبة في الهرب. وتملكتها الحيرة والارتباك إذ لم تستطع أن تتصور لماذا شعرت بكل هذا.

- بونر.. حبي.

وفتحت الجميلة ذراعيها وكأنها توقعت أن يأخذها إلى أحضانه، وهي تهتف: «مفاجأة... أليس كذلك؟».

www.elromancia.com

٦ ـ في شِباك الغيرة

لم يصدق تاغارت عينيه. وصلت «لي ستانتون» إلى الشرفة وتقدمت نحوه، متوقعة منه أن يندفع نحوها بقوة ولهفة. تباً لذلك! هذا كل ما كان ينقصه... أن تجيء إليه صديقة سابقة لا تنوي أن تصبح سابقة.

على الأقل تذكرت أن تدعوه بونر.

ولم يكن مدهشاً أن تتقدم منه فتتعلق بعنقه. وضع يديه على أعلى ذراعيها مبعداً إياها عنه بقوة: «مرحبا يا لي».

وأشار إلى ماري التي واجهته أخيراً: «أقدم إليك ماري أومارا، ممرضة ميزويتي. ماري، هذه لي ستانتون. صديقة من... بوسطن».

نقلت ماري نظراتها من تاغارت إلى المرأة المتعلقة به وقالت بصوت رتيب دون أن تبتسم: «أهلاً وسهلاً».

لم تترك لي عنق تاغارت تماماً. لكنها أرخت قبضتها لتتمكن من الالتفات إلى ماري وقالت: «آه، مرحباً».

أدرك تاغارت أن لي وجدت ماري تافهة، فهي من أسرة ثرية ونشأت في طبقة راقية مترفة. وعندما تخاطب الناس فبلهجة تشعرهم بأنهم أقلّ منها شأناً.

قالت لي لماري بضحكة خافتة ذات معنى: «عذراً ولكن مضت عدة أيام منذ أن رأيت... بونر».

لم يستطع تاغارت أن يمنع نفسه من النظر إلى وجه ماري، كان في ملامحها جمود مخيف. مررت يدها في شعرها، فشعر إزاء هذه الحركة بموجة ساخنة

تشمل كيانه وأنباء نسيم الليل أن العرق يكلل جبينه. كيف أمكن أن تؤثر عليه بهذا الشكل؟ لقد عانقته لي لتوّها فلم يشعر بشيء. لكن رؤيته لماري وهي تتخلل شعرها جعلته يحترق.

قالت ماري بابتسامة متوترة وهي تضع يديها على وركيها: «لا تهتمي بي، فقد تعودت أن أرى النساء يتعلقن به».

فقالت لي: «حقاً؟».

ونظرت إلى تاغارت بتشكك. ولم يدهشه أن تجد من الصعب تصديق ذلك، فهي تعرفه محافظاً مدمناً على العمل. لقد عملت في المكتب نفسه مع تاغارت مدة أربع سنوات قبل أن تصبح شريكة كاملة منذ ثلاث سنوات. كانت لي تعلم أن تاغارت يعمل مدة اثنتي عشرة ساعة يومياً، ووقته أضيق من أن يتمكن من التعرف إلى النساء، فكيف بإنشاء علاقات معهن.

- حسناً، يا بونر، أتركك وحدك عدة أيام فإذا بك توقع بكل فتيات الريف؟

سلخ نظراته عن ماري ونظر إلى لي عابساً: «ليس كلهن».

فسألته ماري هادئة: «أخبرني، يا سيد ويترينج، هل تعانق كل امرأة تتعرف إليها؟».

شعر بطعنة في قلبه لم يعرف سببها. نقل نظراته بين المرأتين بملل وشعر وكأنه أدين بجريمة لم يقترفها.

- لا، أنا لا أعانق كل امرأة أتعرف إليها.

- اسمعي، يا مارشا، كوني لطيفة واحضري لي حقائبي.

قالت لي هذا لماري وهي تبتسم لتاغارت الذي كان يشعر بأصابعها المشتبكة حول رقبته كحبل المشنقة، متابعة قولها: «إنها في صندوق السيارة وأنا مرهقة للغاية».

وفكر في أن ذلك الغنج وتلك الإثارة في صوتها لا ينبيء عن إرهاق. ومد

يديه يفك يديها عن رقبته: «سأحضر لك حقائبك يا لي، لأن ماري تعمل لدى ميزويتي وليست لديك. لماذا لا تأتين أنت أيضاً؟».

وألقى بذراعه بقوة على كتفها يدفعها أمامه مفكراً في أن يتحدث معها على انفراد.

ضحكت بصوت منخفض. وعندما وصلا إلى صندوق السيارة فتحه، مخفياً نفسه ولي عن نظر ماري، ثم قال بصوت منخفض وهو يصرف بأسنانه: «لماذا جئت بحق جهنم؟ وعلى من تركت المكتب؟».

فقالت تداعبه: «لا تقلق، أنا أعلم أن باكستر وباركر عجوزان، لكنهما يستطيعان القدوم إلى المكتب عند اللزوم. وإلا، بإمكان الأولاد أن يتصرفوا».

بالنسبة إلى لي، كل المحامين الجدد هم «أولاد». حتى أنها تناديهم بذلك في وجوههم، ولذا لم تكن محبوبة في العمل. وقال محاولاً أن يكون مهذباً، فالعادات القديمة لا تموت بسهولة: «تباً لذلك، يا لي، فهذا التمثيل الذي أقوم به صعب بما يكفي من دون... تعقيدات».

أحاطت وسطه بذراعها تعتصره بشعور تملكي: «لا تخف، يا بونر، إسمع، لقد كنت أتدرب على مخاطبتك بهذا الاسم طوال الرحلة من المطار. هذا إلى أنني أحضرت إليك بعض الأوراق التي تحتاج إلى توقيعك».

- آه؟ لم أسمع بأن مكاتب البريد المستعجل أقفلت أبوابها.

- يا لك من رجل مضحك! فكرتُ أنني بحاجة لإجازة وبدا لي أن عدة أيام في هذه المنطقة هو عين الصواب.

- تفكيرك خطأ.

أشارت إلى حقائبها: «ألن تخرجها؟».

- لا. لأنك لن تبقي هنا.

تغيرت ملامحها من حبيبة ضاحكة إلى محامية متصلبة: «أنا باقية هنا طبعاً،

لا تكن سخيفاً».

- أنا؟ سخيف؟ أنت جئت، دون إعلان مسبق، إلى بيت غرباء عنك تماماً وذلك في منتصف الليل، ثم تتوقعين...

- هذا ليس ذنبي، لقد حاولت الاتصال بك. أين هو هاتفك؟

فقال متحيراً لعدم إحساسها: «إنه مقفل في الدُرج. بعد اتصالك ذاك قررت أن من المجازفة أن أبقيه معي. ثم هل نسيت أنني في إجازة؟».

دفعته بوركها بخفة بشكل مثير: «حسناً، أنا هنا، وأنا باقية، وأنا لست بحاجة إلى غرفة... أريد فقط نصف سرير».

- مستحيل يا لي، المفروض أنني هنا للترفيه عن جدتي العجوز المريضة وتسليتها، لا لتسليتك أنت.

كان غاضباً ومن الصعب أن يبقي صوته منخفضاً لكنه أرغم نفسه على ذلك: «قد لا تكون ميزويتي جدتي، لكنني أحبها. لا أريد أن أفسد عليها هذه الفترة. لا أريدها أن تظن أن حفيدها لا يستطيع أن يكبح رغباته أثناء زيارة أسبوعين لقريته الوحيدة التي ما زالت حية. المرأة تعبد بونر، وهي تظنني هو. وأنا لن أفسد ما يمكن أن يكون آخر ذكرياتها عنه».

طرفت بعينيها، لكنه؛ غير هذا، لم ير منها أي ردة فعل عاطفية. ما الذي كان يتوقع؟ إنها حديد مسبوك.

بعد زفرة طويلة، تابع يقول: «من يعلم متى، أو حتى إذا كانت جدة بونر ستراه مرة أخرى. إذا دخل السجن، قد تموت قبل أن يخرج منه».

طرفت لي بعينيها مرة أخرى. ثم نظرت حولها وزمّت شفتيها. لم يظن أنها ممن يندمون أو يعتذرون. لكن شيئاً بالنسبة لهذه الحركة جعله يشعر أن تلك الصفتين أقرب إليها من أي وقت آخر. حتى عندما كان القضاة يهددونها باتهامها بتحقير المحكمة، كان اعتذارها لا يعدو (اذهبوا إلى جهنم) دون أي توبة حقيقية.

لمست ذراعه وقالت: «يا للأسف، يا تاغارت لم يكن لدي فكرة عن أنك ستأخذ هذه المزحة الصغيرة العابثة على محمل الجد».

أشاح بوجهه ومضى يحدّق إلى السماء. قبل أن يقابل ميزويتي لم يفكر كيف سيؤثر عليها انتحاله شخصية حفيدها. كان تفكيره منحصراً في ورطة بونر وكم يدين لصديقه. وتمتم: «لم تكن مزحة قط بالنسبة إليّ. كنت غاضباً في البداية، إنما الآن... ميز ويتي امرأة لطيفة ولن أؤذيها ولا أنوي أن أسمح لك بذلك أيضاً. وجودك هنا يشكل خطراً وقد يحطم قلب تلك المرأة الوحيدة».

نظرت لي إليه غير مصدقة: «يبدو عليك وكأنك تهتم بها حقاً».

- يا لجهنم، يا لي، ماذا كنت أقول طوال الوقت؟

جثمت على حافة صندوق السيارة: «حسناً، هذا حتماً شيء ظريف حبي ولكن قل ما تريد، فأنا لست مغادرة. لن أعود إلى «دينفر» قبل الأربعاء القادم. ولذا كل ما بإمكاني القيام به هو أن أعدك بأن تكون تصرفاتي كأحسن ما تكون... بين الناس».

وأمسكت بيده تضغطها باسمة: «هذه ناحية جديدة بالنسبة إليك من طباعي، يا تاغارت».

نزع يده من يدها وهو يدير حدقتي عينيه: «أجل. كم أنت حسنة التصرف!».

- قلت لك بين الناس فقط.

ووقفت وهي تسوّي تنورتها، متابعة: «أحضر الحقائب، يا بونر، وسأدع الممرضة تأخذني إلى غرفة خاصة بي. حتماً هناك غرفة للضيوف في هذا البيت الكبير».

أثار غضبه تنازلها الإستعلائي نحو ماري أكثر مما أثاره عنادها وتابع يقول: «عودي إلى بوسطن. بقاؤك هنا لن يغير ما قلته لك في آذار. كم مرة عليّ أن أكرره؟».

كان يأمل أن ترغمها صراحته على أن تدرك أن ما كان بينهما لن يعود أبداً. لكنها شبكت ذراعيها على صدرها دون أن تتحرك: «حسناً، جميل جداً. سأذهب ولكن قبل ذلك لا تدهش إذا أنا فضحتك ونسفت هذه اللعبة من أساسها... يا تاغارت لنكستر. هل كلامي واضح؟».

لم يُدهش. خاب أمله لكنه لم يُدهش، فقد كانت لي عديمة الرحمة وكان عليه أن يعلم ذلك. فقد مرت عليه ظروف في مهنته هو أيضاً دفعته ليكون عديم الرحمة. وفي هذه الظروف الآن، ليس أمامه إلا أن يصدق تهديدها هذا. ولو كان الأمر يتوقف عليه وحده، لما اهتم لكنه لن يسبب الألم لميز ويتي مهما كلفه الأمر.

وكان هناك سبب آخر أيضاً. سبب لا يريد أن يفكر فيه.. لا يريد أن يعترف به. لكنه موجود يحوم في ذهنه. فكرة رحيله الآن عن ماري تسبّب له ألماً عميقاً، تنفس بعمق، محاولاً أن يروّض طبعه وقلبه العنيد. وسألها بجمود: «إذن، فهذا ابتزاز؟».

ابتسمت، وبدت بطبيعتها القديمة الماكرة: «لا تدعنا نسمي ذلك ابتزازاً، يا حبي».

- لكنها الحقيقة.

أراحت يديها على كتفيه: «أعلم، ولكن دعنا لا ندعوه كذلك. والآن، بعد أن اتفقنا، أحضر الحقائب».

- ألا يهمك أنني أوضحت أن لا شيء بيننا؟

ضحكت وكأنه قال شيئاً ساذجاً: «كل الرجال متشابهون. لا يعلم الواحد منكم ما يعلم إلا بعد أن تخبره المرأة المناسبة».

وربتت على خده: «كن ولداً لطيفاً حبي، واحضر حقائبي».

حدّق إليها. اللوم في ملامحه لم يحدث أي تأثير، بل زمت شفتيها وكأنها ترسل إليه قبلة: «سأطلب من «ماغدا» أن تأخذني إلى غرفة».

صرف بأسنانه وهو يتناول أول حقيبة: «اسمها ماري أومارا وهو اسم سهل تذكره».

سارت في طريقها قائلة دون أن تلتفت: «ماري، ماغدا؟ ومن يهمه ذلك؟».

عندما أنزل الحقيبة الثانية، حدّق إلى لي وهي تبتعد، وتمتم: «يهمني أنا».

لم يكن يريد أن يشعر بكل هذه الحرارة نحو أي امرأة. فماذا في ماري سبّب له كل ذلك القلق وعدم الصبر والتمرد؟ شيء ما... دفقة من الإلهام، لمحة من حقيقة، لا مفر منها... حاولت أن تطفو من عقله الباطن لكنه قاومها ورفضها. لم يكن مستعداً. رفض أن يواجهها.

- تباً لذلك!

أحنى رأسه وكأنه يصلي، وتقدم إلى الأمام متراخياً، ضجراً مثقل القلب، وقد هاجمته ذكريات حبه المفقود بعنف. تلك الذكريات التي ساندته طوال السنوات الخمس الأخيرة. كان يظنها ستبقى كافية على الدوام. همس شاعراً بالذنب: «أنا آسف للغاية، يا أناليزا... أخبريني بما عليّ أن أفعل».

* * *

إذن فهذه هي المرأة التي يحبها بونر ويترينج! ولسبب ما، وجدت ماري أملها يخيب في ذوق هذا الرجل. لا شك في أن لي ستانتون مذهلة الجمال، ولعلها عارضة أزياء درجة أولى. لكنها تبدو... صلبة، نوعاً ما. ومستغرقة في ذاتها.

هبطت ماري ببطء السلم من الطابق الثاني. هذه التطورات الجديدة استولت على أفكارها. وهزت رأسها لشعورها بشيء بسيط من الإكتئاب. وتمتمت تحدث نفسها: «لماذا هذه الدهشة؟ إنه رجل أحمق بقدر ما هو رائع وأناني. فلماذا لا تكون حبيبته حمقاء بقدر ما هي رائعة وأنانية؟ إنهما منسجمان تماماً». لكن من المحزن أن ماري وجدت من الصعب أن تنظر إلى أي شيء يتصل

ببونر بشكل منطقي. هذه كانت مشكلتها.

سمعت صوت الباب الأمامي ينفتح فرفعت بصرها لترى تلك الشقراء تدخل، ثم تهتف واضعة يدها على وركها: «آه، ها أنت ذي، أنا بحاجة إلى غرفة».

وأضافت لي قبل أن تصعد السلم: «أفضّل غرفة مواجهة للجنوب».

جاهدت ماري لكي تمنع نفسها من أن تطلب من كلّية السموّ والقدرة هذه أن تستدير لكي ترفسها إلى الخارج. لكنها رسمت على شفتيها ابتسامة مهذبة وعدّت إلى العشرة.

تمتمت وهي تسير أمام المرأة: «سأقودك إلى غرفتك».

وأشعلت ضوء السلم الخارجي الذي يؤدي إلى غرفة الضيوف القائمة فوق الكاراج.

سألتها الشقراء بعجب: «ماذا؟ في الخارج؟».

مرة أخرى شعرت ماري بدافع إلى النطق بشيء قد يفسر بأنه غير لائق. لكنها ابتلعت هذا الدافع وأومأت:

ـ الغرفة الكائنة فوق الكاراج جميلة تماماً. وهي أجمل ما عندنا وهي لا تبعد عن المنزل الرئيسي سوى عدة خطوات.

وصلت ماري إلى شرفة السلم الخارجي في الوقت الذي رأت فيه بونر يحمل حقيبة في كل يد ويقف عند أسفل الدرجات، وقد تحوّل انتباهه إلى الضوء الذي كانت ماري قد أشعلته. وعندما سمع وقع خطواتها نظر إليها: «هل تلك هي الغرفة؟».

- نعم، وهي جميلة تماماً.

- أنا واثق من ذلك.

قال هذا عندما انضمت الشقراء إلى ماري على الشرفة.

لم تعلم ماري ما الذي جعلها تعتذر بقولها: «أخشى أن تكون الغرفة

الوحيدة الخالية في المنزل صغيرة جداً. الغرفة التي تنام فيها بيكا أثناء زياراتها».

فقال بونر: «لا ضرورة للشرح. ستكون لي مرتاحة تماماً. أليس كذلك يا لي؟».

ونظر إلى الشقراء بملامح غامضة.

لم تجب لي على الفور وإنما اجتازت الشرفة إلى الدرجات الخارجية، وقالت وهي تهبط السلم نحوه: «طبعاً، يا حبي».

ورغم أنه لم يعد بإمكانها أن ترى وجه الشقراء، إلا أنها شعرت، من صوتها، بأنها تبتسم. يبدو أن هذه القادمة تدّخر مودتها فقط لمن لهم أهمية في نظرها، مثل بونر ويترينج.

– الفطور يقدم في المطبخ حوالى...

فنادت الشقراء دون أن تحوّل نظراتها عن رفيقها الطويل الوسيم: «لا تزعجي نفسك بمراجعة قوانين المنزل... بونر سيتلوها عليّ».

شعرت ماري بوخزة ألم: «حسناً...» وتنحنحت وهي ترى المرأة تتأبط ذراعه: «تصبحان على خير».

لم يجب أي منهما. يبدو أنهما مستغرقان في النظر في عيني بعضهما البعض.

دخلت ماري المنزل وأغلقت الباب، وكانت في منتصف الطريق إلى الطابق الثاني عندما لاحظت آلة التسجيل مازالت تذيع تلك الأغاني الغرامية، فعادت تهبط السلم لتقفلها ثم تعود إلى غرفتها. فلتدعه يحدق في عينيها طوال الليل إذا شاء! فلتدعه يغازلها فهذا لا شيء بالنسبة إليها، ولا يهمها على الإطلاق!

ألقت بنفسها على سريرها والشعور بالإرهاق البالغ والوحشة يمنعها من القيام بأي شيء آخر، وتمنت أن تتمكن من النوم دون أن تحلم بعناقه.

غفت ماري، ولكن ليس لفترة طويلة، فقد استيقظت مجفلة مستدركة أن عليها الاستحمام وتغيير ملابسها.

أخذت قميص نوم واتجهت إلى الحمام. وفي الداخل أضاءت المصباح فأجفلت لقوة توهجه فصممت على الاستحمام على ضوء الشمعة الممزوجة بعطر اللاقندر والموضوعة فوق رف المغسلة.

علّقت قميص نومها، واطفأت المصباح الكهربائي ثم فتحت صنوبر المياه فوق الحوض، وتمددت فيه، بينما كل ما حولها ساكن خافت الضوء، ما جعل الحمّام يصبح ملاذاً مريحاً أميناً ولو إلى حين.

تنشقت الرائحة الطيبة بعمق، ثم زفرت ببطء، تتخلص بذلك من آلام وقلق النهار. وركزت اهتمامها على التنفس ببطء فترة ساعدتها على التخلص من توترها، كما طهرت ذهنها ونفسها من كل ما يثقلهما، راجية أن يساعدها ذلك على نوم عميق.

أغمضت عينيها وهي تتنشق تلك الرائحة المهدئة حتى انساقت إلى حالة نصف واعية نقلت جسدها المنهك وذهنها المثقل إلى عالم آخر... عالم أرقّ وأكثر حناناً لا يحتوي على أمثال جو لكنز وبونر ويترينج.

في مكان ما، في وقت ما، وهي تسبح في شرنقة نومها الدافئة، راود ماري أغرب حلم. رجل يقف مشرفاً عليها، جامداً هادئاً، ثم، من خلال هذا السكون الكلي، سمعته ينطق بكلمة. واهتزت إزاء هذه الكلمة الشرسة الفظة. إنها ليست كلمة سارة. ما الذي كانت تفعله هذه الكلمة غير السارة في مكانها الهادىء الحنون؟

بين اليقظة والنوم، أخذت تهوّم محاولة أن تستعيد حلمها عندما انتبهت إلى صوت آخر. كان صريراً غامضاً وكأنه احتكاك معدن بمعدن، مزيجاً بخفيف شيء ما... قماش؟ تثاءبت ثم تململت، راجية أن تنتهي هذه الضجة الزعجة.

سمعت ما يشبه صوت باب يُغلق بهدوء، طرفت بعينيها وقد أصبحت أدنى إلى اليقظة منها إلى النوم. تمطّت. يا له من حلم شاذ ممزوج بتأثرات غريبة. وإذ رأت النعاس يغالبها، أدركت أن عليها أن تذهب إلى سريرها وهي في هذه الحالة اللذيذة من النعاس. انتصبت جالسة وتمطت مرة أخرى، ولكن يدها،

هذه المرة، احتكت بشيء ما، فنظرت إلى خارج الحوض حائرة، ومضت عدة ثوانٍ قبل أن تلاحظ الستارة البيضاء المتدلية حول الحوض القديم.

فركت عينيها حائرة هي متأكدة من أنها لم تسحب الستارة، لأنها تتذكر أنها كانت ترى ضوء الشمعة من قبل بشكل واضح للغاية...

آه، يا رب السموات. انتبهت الآن تماماً، وشعرت بالإهانة، والخجل حتى الأعماق. لم يكن ذلك حلماً! فقد دخل عليها الحمام! لقد رآها في الحوض...

وبردّ فعل عكسي، نبذت ما تشعر به من إذلال، كيف يجرؤ على الدخول دون أن يقرع الباب؟ وثار غضبها بعنف لوقاحته، هذا إلى ما سبق وشعرت به من خجل بالغ فصاحت: «يا سيد ويترينج في المرة القادمة، تفكر في أن تقرع الباب قبل الدخول. مفهوم؟».

لم يجب.

أزاحت الستارة وخرجت من الحوض ثم تناولت منشفة لفت نفسها بها: «لا بأس، علينا أن ننهي الأمر».

وكانت من الغضب بحيث لم تشأ أن تقتنع بمنطق أو تعقّل، فطرقت الباب المؤدي إلى غرفته بعنف: «هل تسمعني يا سيد ويترينغ؟ أجبني، أنا أعرف أنك موجود».

كانت مصممة على مواجهته لنظراته الوقحة إليها التي لا تُغتفر.

تحرك مقبض الباب فقفزت متراجعة. لاح أمامها عاري الصدر في مدخل الحمام. لم يكن في غرفته مصباح مضاء ومع ذلك كان ضوء القمر يتسرب من النافذة الأمامية مضيئاً وجهه الرزين وصدره. كان لا يزال مرتدياً بنطلونه لكنه كان حافياً. واهتزت عضلة في فكه، وتنحنح ثم قال عابساً، ببساطة: «آسف».

وعندما لم يزد، غضبت: «آه، أنت آسف، إذن؟ هه؟».

وانعكس ضوء الشمعة في عينيه، معيقاً قدرتها على قراءة نظراته. هل كان نادماً على فعلته، أم مجرد غيظ لانكشاف أمره؟

تمتم شيئاً بصوت منخفض بدا لها وكأنه يقول إنه أكثر أسفاً مما تتصور، لكنها لم تستطع التأكد: «لم أدرك أنك كنت... بدا عليك أنك كنت نائمة».

وبان عليه الاضطراب فردت عليه بحدة: «أنا ظننت أني كذلك. ولكن إذا بحلمي يتحوّل إلى كابوس حي».

مرّت مسحة من المشاعر على وجهه: «لم يكن المصباح مضاءً فكيف أعلم أنك في الداخل؟».

كان هذا صحيحاً فقد كان الحمام مظلماً وربما افترض أنها في سريرها. سألته: «كم الساعة؟».

دهش لتغييرها الموضوع لكنه نظر في ساعته: «الثالثة والنصف. لماذا؟».

- ظننت الوقت أكثر تأخراً بكثير.

وبدا لها أنها لم تكد تغفو. فإذا كان هذا صحيحاً، فهو لم يمض وقتاً طويلاً مع الحبيبة. فنظرت إليه بارتياب: «إما أنك لست عشيقها كما تدعي، وإما أنك لم...».

لم تعرف كيف تنهي كلامها فقررت ألاّ تفعل.

وهزت رأسها لتدع ذهنها يعمل. فحدثت نفسها بأن تتذكر سبب وقوفها هنا ملتفة بمنشفة، وأنها غاضبة منه! وأن تخبره بذلك!

أعادت التحكم في ملامحها لكي تعلن حقها في السخط: «أردت فقط أن أقول إنني متفهمة لما قد تقوله من أنك ظننتني في السرير فدخلت الحمام، أما ما لا أعذرك لأجله هو أنك بقيت واقفاً تنظر إليّ بينما أنا كنت... كنت عاجزة للغاية! كانت تلك سفالة وأنا لن أدعك تفلت من العقاب».

ازداد تقطيباً، لكنه رفع حاجبه مستفهماً: «وماذا ستفعلين؟ تفقرين عينيّ؟».

- ماذا؟

كان صعباً أن تبقى سوية التفكير عندما يكون قريباً منها إلى هذا الحد.

- هل هذا يرضي كرامتك المجروحة؟

حملقت فيه محاولة استيعاب ما يعنيه: «إياك أن تجرؤ على السخرية مني».

- اسمعي، قلت إنني آسف.

كان الانزعاج على ملامحه مثيراً للأعصاب بقدر ما كان ساحراً. تشابكت مشاعرها ولم تعرف أيها سينجح في الظهور، الاستياء البالغ أم خفقات القلب المفزعة؟

- ليس الأمر من الأهمية بحيث يستلزم الاعتذار ففي النهاية النظر لا يُحجب.

كان صوته فارغ الصبر تقريباً وأحسّت بتوتره الكئيب يكهرب الجو بينهما. كان غضبه بقدر غضبها. لم يكن هو الطرف المتضرر هنا: «أنا لم أنظر إليك بسفالة. على الأقل ليس بقدر ما هو مفروض عليّ بصفتي رجلاً. وقد خرجت حالما استطعت ذلك».

تبعت نظراته حركة يديها وهي تسوّي المنشفة، وقد توترت عضلات فكه: «اسمعي، لقد اعتذرت. منذ الآن فصاعداً سأطرق الباب، سواء رأيت ضوءاً أم لا. ماذا بإمكاني أن أقول أكثر من ذلك؟».

لم تكن تعلم، ولكن لماذا لم تغلق هي الباب؟ ولماذا تقف هنا تحدق إليه بكل هذا الحزن؟

كانا يقفان على جانبين متناقضين لهوة فظيعة... بين الأخلاق وعدم الأخلاق، الحقيقة والكذب، الثقة والخيانة. لماذا يتلهف قلبها إلى جسر فوق هذه الهوة؟ ليس هناك جسر. ولا يجب أن يكون... على الأقل ليس جسراً يقودها إليه، ذلك أن ما من نهاية سعيدة بجانبه.

قال مشيراً إلى الحمام: «أودّ أن أستحم، فإذا أمكنك أن تختصري المحاضرة...».

الحق معه، فقد قالت ما تريد قوله. وكلاهما غاضب ومرهق. لم يبق هناك ما تعمله سوى الهرب بأسرع ما يمكنها إلى الجهة المقابلة، فقالت وهي تستدير لتذهب: «امنحني خمس دقائق أنظف بها أسناني ثم يصبح الحمام لك».

- بالمناسبة، هي لست عشيقتي.

- ماذا؟ آه، نعم، فهمت.

وعادت إلى التركيز على غضبها، فرفعت رأسها متحدية: «هذا طبيعي، فهذا هو المفروض أن تقوله».

وعادت إلى الحمام وصفقت الباب في وجهه.

عندما عاد السكون مرة أخرى، شعرت ماري بأنها هُزمت بشكل غريب. سارت إلى المغسلة واستندت إليها. أغمضت عينيها بشدة وهي تشعر بالتعاسة. لقد ظنت أن صفقها الباب بوجه جرأته يمنحها التقدير، ويخفف من شعورها بالمذلة وانكسار القلب... لكن هذا لم يحدث.

٧ ـ طريق الذلّ

جلست ماري إلى مائدة المطبخ تتناول فطورها. كان ذلك صباح السبت، وهي لم ترَ لي ستانتون يوم الجمعة على الإطلاق. إذ أن الرحلة أعيتها، ما جعلها تلازم غرفتها المعتمة تئن وتنوح، مدعية أنها ستموت. أما ماري فقد أبقت نفسها مشغولة مع ميزي وبتي واحتياجاتها لكنها كانت تسمع بولين وروبي تتذمران من أنين لي وأوامرها المستبدة.

وسألت بولين مخرجة ماري من أفكارها: «من تظن نفسها؟ ملكة مصر؟».

كان واضحاً أن بولين منزعجة من صديقة بونر المدعية.

نظرت ماري إليها وسألتها: «ما الذي فعلته الآن؟».

شدت بولين قبضتيها على جانبيها: «أنا لم أرها بعد ومع ذلك أكرهها. اتصلت لتوها عبر الهاتف الداخلي قائلة إنها ستأتي لتناول الفطور خلال عشر دقائق وهي تريده قليل الدسم مع كعكة من القمح الصافي وقهوة دون حليب ولبن خالي الدسم وفريز طازج. هل تتوقع مني أن أهز عصاي السحرية وإذا بهذه الأنواع أمامي؟ نحن لسنا في فندق».

- لماذا لا تضعين لها شيئاً من «توست» القمح وقهوة ثم تسألينها إن كان الفريز المجفف يفي بالغرض؟

شخرت بولين وهي تسدّد قبضتها وكأنها ستلكم بها شخصاً ما: «سأمنحها الخيار بين لكمة باليسار أو لكمة باليمين».

وسارت إلى المائدة ومالت نحو ماري: «أنا أعرف أن لي هذه هي صديقة بونر

التي تحدث عنها، ولكن...».

ونظرت إلى الباب لتتأكد من انفرادهما: «رأيي الشخصي هو أن هذه المرأة دجّالة متكبرة... كنت أظن السيد ويترينج أكثر مهارة».

هزت ماري رأسها بابتسامة باهتة: «لا تدعيهما يكدّرانك».

- لا عجب في أن أذنيّ كانتا تطنان.

أجفلت المرأتان لسماعهما صوت بونر ونظرتا إلى الباب. قفز قلب ماري. لقد استطاعت البقاء بعيدة عنه يوم الجمعة. لكن يوماً بكامله لم يكن كافياً لينسيها مواجهتهما في الحمام. هذه الفكرة حبست أنفاسها.

- آه، رباه.

وانتصبت الطاهية محمّرة الوجه. وشعرت ماري بالعطف نحوها وهي تراها مذعورة لسماعه قولها.

ورغم أن ماري حاولت أن تعمل بنصيحتها هي ولا تدعهما يكدّرانها، إلاّ أن وجنتيها احمرتا هي أيضاً. لسوء الحظ، كان اسداء النصائح شيئاً، والتقيد بها شيئاً آخر، خصوصاً عندما تشتعل كل خلية حمقاء في كيانها الغبي عندما يكون قريباً منها.

تمتمت وهي تحدق في صحنها، متجنبة وسامته القاتلة: «أظن المفروض أن تطن أذناك طوال الوقت يا سيد ويترينج. لأن نمط حياتك حتماً يولّد الأقاويل».

تضمنت ضحكته الخافتة أثر تسلية، وهذا أجفلها، لكنها لم تجرؤ على النظر إليه. كانت تخاف ابتسامته.

وبدأت بولين تخاطبه مترددة وقد اختلف سلوكها معه عمّا كان عليه سابقاً وتملك ماري شعور بأن تأثير جو هو الذي أنجز هذا التغيير. كان واضحاً أن حنان رجل خجول صادق تمكن من إحداث تغيير جوهري في مشاعر هذه المرأة.

- سيدي، صديقتك... لي، تريد أنواعاً لفطورها غير موجودة لدي. يمكنني أن اشتريها وأجهزها لها صباح الغد، ولكن....

- لا تقلقي يا بولين. ستأكل لي أي شيء تعدّينه. ثم، أرجوك، نادني بونر.

- نعم، يا سيدي، آه، لا بأس. هناك كعكة كرز، وبيض مقلي أو النوعان معاً وخبز محمص وعصيدة حبوب، بالإضافة إلى عصير البرتقال، والقهوة، كالعادة.

- ماذا لو وضعت لها شيئاً من كل نوع؟

- لا بأس.

وشغلت الطاهية نفسها عند الموقد، بينما سحب هو كرسياً جلس عليه.

وما لبث أن ارتفع صوت وقع خطوات عرفت ماري مصدرها على الفور.. ملكة مصر. التفتت إلى باب المطبخ مبادرة القادمة الطويلة الشقراء بابتسامة مهذبة، محاولة، عبثاً، أن تجعل تعبيرها مخلصاً، لكنها بدت متوترة: «صباح الخير، يا آنسة ستانتون. هل تحسن صداعك؟».

سارت المرأة إلى بونر مباشرة ووضعت يديها على كتفيه، ثم انحنت تقبّل عنقه: «صباح الخير، يا حبي».

- صباح الخير يا لي.

وأبعد رأسه عن قبلتها، ووقف يواجهها: «هل تشعرين بتحسن؟».

أومأت، رغم أن ملامحها عبّرت مسرحياً عن العذاب: «أخيراً».

- جيد.

وسار إلى كرسي تواجه ماري وسحبه لها: «هل ستجلسين معنا؟».

أخذت لي الكرسي ثم ربتت على خده: «شكراً يا بونر».

ثم ابتسمت وألقت عليه نظرة ذات معنى، فلم تفهم ماري ما الذي تعنيه نظراتها أو إصرارها على ترديد اسمه. لا شك أن في ذلك نوعاً من نكتة خاصة بالعاشقين.

خيّل إلى ماري أنها لاحظت توتراً في فكه، وهذا أيضاً لم تفهم سببه. قال: «بالمناسبة، يا لي، بولين لا تستطيع تلبية كل ما يطلب منها على الفور. لذا تناولي ما تقدمه لك وإلا لن تأكلي. الخيار عائد لك».

وابتسم لها: «أنا أنصحك بالكعك».

هتف قلب ماري لابتسامته وخفضت نظرها إلى صحنها.

قالت لي وقد بدت منطفئة: «قهوة فقط. لا أستطيع أن آكل كل ذلك الطعام الدسم».

فقالت لها ماري: «لماذ لا تأكلين عصيدة الحبوب؟ وحليباً دون دسم؟ عصيدة الحبوب تخفض الكولسترول».

لوّحت لي بيدها تنبذ هذه الفكرة باشمئزاز: «مذاق ذلك كمذاق الكرتون».

وضعت بولين فنجاناً من القهوة أمام لي: «تفضلي يا سيدتي».

ولوت وجهها فوق رأس لي فلم يرها سوى ماري. ولكي تواري هذه ضحكتها العنيدة، سعلت خلف يدها بينما كانت بولين تضع فنجاناً آخر أمام بونر، وهذه المرة أقل تكلفاً: «وهذا فنجانك يا سيدي».

- شكراً يا باولين. وتذكري ألا تقولي سيدي.

- آه، نعم.

وتوجهت إلى الموقد: «سيأتيك فطورك حالاً، يا سيد ويتيرينج».

- أنا بونر، ولا داعي للعجلة.

- نعم يا سيدي.

تحوّل نظر ماري إليه. كانت ملامحه جادة، فسارعت تعيد نظرها إلى فطورها. لماذا يجذبها دوماً كالمغناطيس!

سألته لي: «هل نمت جيداً، يا حبي؟».

شعرت ماري بالغيظ، فلم تستطع أن تمنع نفسها من أن ترد ساخرة: «نعم يا حبيبتي».

ونظرت إلى لي ببراءة: «أم أنك لم تكوني تتحدثين إليّ؟».

ضحك بونر بصوت خافت فملأ صوته المكان. وأجفلت ماري لأنها استطاعت أن تجعله يضحك، بالنسبة إلى رزانته البالغة منذ لحظات. كانت متلهفة إلى أن تتفحص وجهه، وتنظر في عينيه، لكنها أرغمت نفسها على أن تداوم التركيز على لي.

نظرت المرأة إلى ماري، وعلى ملامحها خليط من التأمل والترفع. وبعد لحظة نقلت انتباهها إلى بونر بابتسامة عريضة وكأن ماري لم تتكلم حتى ولم تكن موجودة، ومدّت يدها تضعها على يده: «يتملكني شعور فظيع لأنني لم أكن معك البارحة. لم يتملكني قط مثل ذلك الصداع التعيس في حياتي».

فتدخلت ماري قائلة، دون أن تهتم بما إذا كانت لي تعبرها أم لا: «ربما سبب ذلك الارتفاع عن سطح البحر. فهو يؤثر على بعض الناس بهذا الشكل».

ومرة أخرى، أخذت لي تتأمل ماري، وعيناها الخضراوان المتألقتان ضيقتان باردتان. كون الظلام كان مخيماً عندما وصلت لي من السفر، كانت هذه أول مرة تراها ماري بوضوح. بدت جميلة تماماً، أكثر مما تتذكرها ماري. كانت حادة التقاطيع ذات فم ممتلىء شهواني وأنف دقيق.

كما أن بشرتها نقية بيضاء ناصعة، وشعرها البلاتيني كثيف وقصير جداً، يصل فقط إلى أذنيها اللتين يتدلى منهما قرطان ماسيان.

كل جزء من لي ستانتون، من عنقها الطويل إلى قوامها النحيل وثيابها البيضاء الحريرية، كان بالغ الأناقة والجمال.

قالت لها لي: «يبدو أنك مصدر معلومات مهم».

وكانت لهجتها توحي بأن السرور سيتملكها تماماً لو جفّ هذا المصدر

واندثر. وتابعت تقول: «أخبريني يا مارتي، هل يصيبك الصداع عندما تهبطين من الجبال؟ أم هل تعلمين عن ذلك؟».

وأمالت رأسها بابتسامة متآمرة.

كانت ماري تعلم أن لي تتعمد تغيير اسمها لكنها تمالكت أعصابها وأجابت: «اسمي هو ماري. ولن تتعرضي إلى مشكلة عند رحيلك، إذا كان هذا ما تسألين عنه».

فسألت بولين وهي تحضر صينية الفطور لبونر: «متى سيكون هذا؟ قريباً؟ يسرني أن أجهز لك غداءً تأخذينه معك للطريق».

رمقتها ماري بنظر مؤنبة لكن الطاهية هزت كتفيها باسمة. وقال بونر: «شكراً للفطور. يبدو لذيذاً».

خيّل إلى ماري أن لهجته يشوبها مسحة من المرح فنظرت إليه. تلاقت أعينهما لكنه حوّل انتباهه إلى لي على الفور: «جواباً على سؤالك، يا بولين، أعتقد أن لي أخبرتني أنها ستبقى حتى الأربعاء».

والتوت شفتاه بابتسامة صغيرة. ولم تعرف ماري ما إذا كانت تسليته الخفيفة سببها ما قالته الطاهية، أم استخفاف لي بها هي. وتابع يقول: «بالمناسبة تحدثت مع ميزويتي قبل حضوري إلى الفطور، فاقترحت نزهة عصر هذا اليوم».

عصرت لي يده وهي تهتف: «آه، هذا رائع. أنا أعشق هذا! ما ألطف أن تفكر بي جدتك حتى قبل أن أحظى بسرور التعرف إليها بعد».

فقال وهو ينزع يده من يدها ليتناول طعامه: «إنها تريد التعرف إليك. سأقدمك إليها بعد الفطور».

- هل أخبرتها من أكون؟

عجبت ماري للهجة المرأة، فقد بدت مليئة بالتلميح لكنها لم تستطع أن تتصور السبب.

تناول بونر الشوكة والسكين ثم ألقى على لي نظرة خاطفة: «أخبرتها بأننا صديقان».

منذ ذكر النزهة، حاولت ماري أن تركز ذهنها على شيء آخر، لكنها لم تنجح. لم تهتم بذهاب بونر وحبيبته في نزهة. وفي الواقع، سرّها ذهابهما، فهذا سيبقيهما بعيداً عن طريقها، فلماذا تشعر إذن بكل هذا الثقل في معدتها؟

سألت بولين وهي تسكب القهوة لنفسها: «كيف تعارفتما على كل حال؟».

فأجابت لي: «آه، تعارفنا في العمل. نحن...».

فقاطعها بونر بلهجة حادة: «المحامي الذي أتعامل معه ولي زميلان في مكتب واحد».

فقالت لي ضاحكة: «هذا صحيح. وبونر غالباً موجود... في المكتب».

وازدادت ماري حيرة. ألا تعمل هذه المرأة في عرض الأزياء؟ ونظرت إلى بونر: «ولكن أليست هي...».

وترددت، وطرفت بعينيها عندما واجه ذهنها الحقيقة. فالفكرة لا يمكن تصديقها.

أكمل بونر شكوكها قائلاً: «لي محامية».

سماعها له لم يجعل الأمور أفضل. تحول نظرها إلى لي، ورددت قوله: «محامية؟».

رباه! هل لي رائعة ومحامية قوية النفوذ؟ هي إذن ليست مجرد امرأة طويلة رشيقة جميلة سطحية العقل. إن لديها شهادة جامعية بالإضافة إلى شهادة في الحقوق وهي شريكة في مكتب هام وهذا يعني أنها ذكية بشكل غير عادي. كما أنها تكسب أطناناً من المال أيضاً، وهذا واضح من ملابسها وذلك الماس في أذنيها. وشعرت ماري بالغثيان وكان انعدام الأمان يجثم فوقها كالكفن...

إذاً ربما هذه الجميلة لديها الحق في أن تشعر بالتفوق.

ضحكة بونر المنخفضة جذبت نظرها: «حاولي أن تكبحي جماح حماستك، يا آنسة أومارا».

فسألته لي بضحكة قصيرة متهكمة: «أي حماسة؟ إنها تبدو أشبه بمن تلقى ضربة على معدته».

قابلت ماري نظرته مرغمة، فأسرتها عيناه وهو يقول: «ماري تظن أن دفاع المحامي عن المجرمين هو إضاعة للوقت».

قال هذا بضحكة واسعة ساخرة فخفق قلبها لمنظره، وقالت وهي تنظر إلى لي: «ليس جميعهم. فقط ذوو الأجر المرتفع، والحديث الناعم. المحامون الذين يحاولون دوماً إثبات أن الأبيض هو أسود والأسود هو أبيض، تبعاً لمن يدفع لهم أجرهم!».

انفجرت لي ضاحكة: «أخ... إذا كان المظهر يقتل، المفروض أن أكون ميتة!».

ومالت إلى الأمام تحدّق في ماري بعنف: «يوماً ما، عندما تقعين في مشكلة حقيقية، يا حلوة الخدين، ستركضين إلى شخص مثلي تماماً، صدقيني. ستفضلين الذهاب إلى الأقوى...».

فقاطعها بونر: «هذا يكفي يا لي».

نظرت لي إليه، ثم ضحكت بعذوبة: «بالتأكيد، يا حبي كما تشاء».

وعادت نظراتها إلى ماري وقد تحوّلت ملامحها إلى التكلف البارد. لم يدهش موقف لي المترفع ماري، فهي تعرف بأن لي لا تهتم بها أو برأيها مثقال ذرة. وهذا، دون شك، أحد الأسباب الذي جعلت لي تتفوق في عمل يتعلق بالمحاكم الجنائية وهو عدم إحساسها بالألم الذي تسببه للآخرين. وقالت بولين من مكانها قرب إبريق القهوة: «لا أظن بإمكان أي موكل ومحاميه أن يحصلا على شيء... أليست هناك قوانين؟».

فقال بونر: «في المهن القانونية كثير من القوانين».

وواجهت لي بولين: «بإمكانك أن تعيدي ملء فنجاني، يا طاهيتي، حيث أن كل ما لدي هو فنجان القهوة هذا. أما بالنسبة إلى القوانين، فأنا لا أمثل بونر. لأن محاميه هو تاغارت لنكستر».

وسكتت وهي تمنح بونر ابتسامة غريبة، قبل أن تضيف: «تاغارت هو المحامي الوحيد الموهوب، بجانبي».

بدا الغيظ على بونر، فاستغربت ماري ذلك. لماذا يغيظ بونر اعتراف لي أن محاميه موهوب؟ وأوشكت أن تسأله ذلك عندما استند إلى الخلف منقلاً انتباهه من لي إلى ماري: «بالمناسبة، ميزويتي تريدك أن تكوني معنا في النزهة. إنها ترى أنك تعبت في عملك جداً في الفترة الأخيرة فأنت بحاجة إلى ترفيه».

وأخذ يراقب بفتور استيعاب ماري لكلامه.

كان لقوله هذا وقعاً صاعقاً على ماري نسيت معه سؤالها. ميزويتي تصرّ على أن تذهب إلى النزهة مع بونر ولي فتكون عضواً ثالثاً غير مرغوب فيه إطلاقاً؟ ما الذي تفكر فيه مخدومتها؟ هذا مستحيل وفتحت فمها لترفض، ولكن بونر سارع فقاطعها: «وكان طبيعياً أن أقبل أنا هذا بالنيابة عنك».

ووقف ومدّ يده إلى لي: «هل نذهب لرؤية ميزويتي؟».

خرج الإثنان قبل أن تستطيع ماري أن تقول كلمة، فجلست هذه، دون حراك، تغلي من الغيظ. هذا فظيع! هي لا تريد أن تكون بقربهما، فكيف بأن تُقذف عليهما كمرافقة للحراسة؛ وتأوهت وهي تغطي وجهها بيديها، صارخة: «آه، يا باولين، كيف يمكنني التخلص من هذه الورطة؟ إنهما لا يريدانني معهما أكثر مما يريدان طعاماً مسمماً».

جلست بولين على كرسي بجانبها وهي تقول ضاحكة: «إذا أنت وجدت طريقة للتخلص من هذه النزهة، أنا مستعدة لأن أرسل معهم كيساً يحتوي على طعام مسمّم».

وعادت تضحك بخبث وهي تفرك يديها معاً: «يمكنني أن أضع شيئاً من «المايونيز» على عتبة النافذة حتى تفسده الشمس، ثم أذهب إلى السوق لأحضر لها لبناً دون دسم وفريزاً طازجاً. وقبل أن يذهبا إلى النزهة، أمزج المايونيز الفاسد باللبن وأضعه في السلة، وبسرعة! محامية شقراء مريضة! هذا حسن أليس كذلك؟».

– هذا شيء مخيف تعرضينه علي ولكن.. كلا. والآن، ماذا عليّ أن أفعل؟

– هل ستذهبين؟

فهزت ماري رأسها: «ليس لي خيار في هذا. حتى ولو أردت أنا ذلك وأنا لا أريده، هما لا يريدانه».

فقالت بولين بابتسامة عريضة: «لكن ميزويتي تريده، والآنسة صاحبة الصداع لا تريده. لا أستطيع أن أجد سببين أفضل من هذين يجعلانك تذهبين».

فقالت ماري وهي تتذكر جمود بونر وهو يراقب استيعابها الخبر: «وبونر لا يريده».

فقالت بولين متأملة: «أتريدين الحقيقة؟ أشعر بأنه يريد ذلك. وأنت؟».

ونظرت إلى ماري مستفهمة فبدت لمحة انتعاش على ملامح هذه، متمنية لو كان ذلك صحيحاً، لكنها أخذت تنفي ذلك في داخلها... لا، لا، لا. إنها لا تريد أن يكون ذلك صحيحاً، فيا لها من امرأة حمقاء..!

ولكن ماذا لو كانت بولين على صواب؟

عضت شفتها السفلى ونظرت إلى الطاهية تمعن النظر في سؤالها، ولكن ليس إلى الحد الذي تتمكن فيه من استخلاص إثباتات وشواهد من لمحات وأشياء غير موثوق بها، وأخيراً، بعد أن انهكتها المحاولة، هزت رأسها. عليها أن تواجه الحقائق. فكرة أن بونر يريدها معهما في هذه النزهة مغرية، لكنها سخيفة.

ووقفت: «لا، هذا جنون! سأفكر في عذر».

* * *

أخذ بونر ينظر إلى ماري وهي تسير في الغابة على بعد عشرة أقدام أمامهما، بينما كانت لي تسير بتثاقل وجهد، متعلقة بذراعه، وهي تتنفس بصعوبة. لقد استعارت منه هذا الحذاء الذي لم يكد يناسب قدميها رغم زوجي الجوارب اللذين ارتدتهما، كما استعارت بنطلون جينز من ماري.

كانت ماري أقصر من لي بخمسة عشر إنشاً على الأقل. ولهذا كان البنطلون قصيراً عليها وفضفاضاً بشكل مضحك فبدا كبذلة المهرج حسب وصف لي له. بينما ارتدت كنزة قطنية حمراء هي كل ما أحضرته معها في هاتين الحقيبتين من الملابس الصالحة للنزهات.

سألته من بين شهقاتها: «كم بقي أمامنا للسير؟».

- حوالى ربع الميل.

قال هذا شاعراً بالتسلية إزاء كفاح لي. كيف يمكنه أن يجد أي شيء مضحكاً؟

كان واضحاً أن ماري كانت تعيسة مثله، بعد إرغامها على المجيء معهما. لم يعرف ما قالته ميزويتي لها، ولكن مهما كان ذلك، فقد أطاعتها رغماً عنها.

أصرّت على أن تحمل سلة الطعام، وربما كان هذا حسناً حيث أن يديه هو مشغولتان دوماً بلي.

قالت لي لاهثة: «ربع... ميل!».

- ظننتك مسرورة للغاية للذهاب في نزهة؟

- نعم... عندما... ظننت... أننا... سنذهب... بالسيارة إلى حديقة عامة... صغيرة... في المدينة.

فقال غير مصدق: «حديقة في المدينة؟ أتظنين أن الناس في «القرى» يذهبون بالسيارة إلى المدينة لقضاء نزهة في حديقة عامة؟».

- حسناً... مهما كان ظني... فهو لم يتضمن.. شخصاً ثالثاً معنا!

- لي...

قال هذا محذراً رغم أن ماري كانت قد ابتعدت بحيث لم يعد بإمكانها أن تسمعها.

فتابعت تقول: «أو... الخروج بملابس... المتشردين!».

- تبدين جميلة المظهر.

وكان انتباهه مركزاً على ماري وهي تتسلق المنحدر، ورفعت لي ذراعها إلى كتفه تتمسك به بشدة: «شكراً يا حبي».

عرف من رقة لهجتها واقتراب صوتها من أذنه أنها التفتت إليه. أرغم نفسه على الالتفات إليها فتلقى ابتسامة عريضة: «أنت دوماً... تعرف الأشياء.. المناسبة للقول».

لم يكن لديه فكرة عما قاله، لكنه أجاب: «شكراً».

سألته وهي تضم شفتيها نحوه بشكل مثير للغاية: «لماذا... لا تحملني... على ظهرك؟».

- لأنني لا أريد أن أموت إثر نوبة قلبية.

ظنت لي أنها إذا تصرفت مثل طفلة مدللة في الثانية من عمرها ستثور رغبته بسرعة: «بالنسبة إلى امرأة بطولي، أنا لست ثقيلة الوزن».

- لقد وصلنا تقريباً... ثم إني كنت أظنك تمضين ساعة كل صباح في رياضة العجلة الثابتة.

- ولكن... في بوسطن... هواء!

في أي وقت آخر كان سيجد عذابها مسلياً، وتمنى لو بإمكانه السيطرة على طبعه والاستمتاع بشكواها، ما دامت ترى معاناة كل شخص آخر شيئاً مسلياً: «كفّي عن التذمر يا ستانتون».

وأشار إلى ماري التي أصبحت تبعد عنهما الآن عشرة أمتار على الأقل:

«إنها تحمل عشرين رطلاً من الطعام في تلك السلة. هل تسمعينها تتذمر؟».

نظرت لي إلى السمراء بغيظ: «يا ليتني لم أرها على الإطلاق! ما الذي جعلك تلحّ عليها بالمجيء معنا؟».

قالت هذا وهي تشبك أصابعها بأصابعه التي تشد خصرها. فنظر إلى ماري وهي تسير بخطوات واثقة على طريق المنحدر الصخري، وشعرها المتأرجح الطويل. رباه، إنها رائعة الجمال، ورقيقة وقوية ومحبة... كل ما كان يظن أنه لن يجده مرة أخرى بعد موت أناليزا...

وأجاب: «لأنني...».

وارتسمت على شفتيه ابتسامة كئيبة: «لأنني أحبها».

توقفت لي مكانها: «أنت... ماذا؟».

زمّ شفتيه وهو ينظر إلى ماري التي ازداد ابتعادها. كان مدهوشاً للسهولة التي قال فيها تلك الكلمات، وكأن حبه لماري هو جزء منه مثل قلبه وعينيه. بعد موت أناليزا، لم يكن يظن قط أنه سينطق بهذه الكلمات مرة أخرى.

أخذ يستنشق عطر الفانيليا الخفيف. لا بد أن المكان المقصود هو أقرب الآن مما كان يدرك.

- لقد سمعتني.

ونقل نظره مرغماً من ماري إلى وجه صديقته السابقة المذهول.

صدر عنها صوت أشبه بضحكة مبتورة، غير مصدقة ثم أشارت إلى ماري باحتقار: «تلك الخادمة الجاهلة؟ حتى إن ذلك ليس مضحكاً».

رفع ذراعه عن خصرها: «أنا أعلم أن ذلك ليس مضحكاً. فهي تظنني بونر ويترينج الرجل الذي تحتقره، والشخص الوحيد الذي تحتقره أكثر من بونر هو محاميه».

وصرف بأسنانه، متأملاً في سخرية القدر.

وضعت يديها على وركيها وحدقت إليه بإمعان: «محاميه»؟

نظر إلى الطريق الصخري المغطى بشوك الصنوبر: «نعم».

لم يسمع سوى صفير الريح بين أغصان أشجار الغابة. وبعد لحظات، إذا بضحكة خافتة تغطي صوت الريح فنظر إلى وجه لي ورآها تهز رأسها بابتسامة عريضة: «دعني استوعب الأمر. أنت تحبها، لكنها تكره الرجل الذي تظنك هو. والشخص الوحيد الذي تكرهه أكثر من الرجل الذي تظنك هو، هو... أنت».

أخذت تراقبه بتسلية ثم قرصت خده: «أنت مخطىء يا حبي. هذا مضحك للغاية».

قطب جبينه مشمئزاً. إنها عادة لي في اعتبار المآزق الباعثة على اليأس، أموراً تافهة: «أنت حقاً امرأة عديمة القلب، يا لي».

- برأيي ما تشعر به ليس سوى افتتان مؤقت. وهي ردة فعل لانفصام علاقتنا، وهي لا تعني شيئاً، وسترى ذلك خلال شهر، وتضحك.

حملق فيها غير مصدق: «ردة الفعل تحدث لدى الفريق المتضرر وليس العكس».

هزت كتفيها قائلة: «حسناً، يبدو أنك لا تفكر بوضوح. انظر إلى الأمر بشكل منطقي. أنت وتلك الخادمة القروية لا يجمع بينكما شيء. هي ابنة القرية وأنت ابن المدينة. هي ربما أمية بينما أنت محام خريج جامعة هارفارد. هي فتاة مسكينة تافهة وأنت...».

فزمجر يقول: «كفى، الحب لا يهتم بالفروقات. وأنا لا يهمني إن كانت لا تستطيع أن تكتب اسمها، فأنا أحبها».

ما زال يعجب لإفصاحه عن ذلك، وبصوت مرتفع. منذ عرف ماري وهو يحاول أن يقتل تأثره بها. فهو لم يكن يريد حباً آخر في حياته، فقد كان قانعاً

بذكرياته مع أناليزا حبيبته. لكن تأثير ماري عليه لم يمت. بل كان ينمو حتى وهو يتعرض للاحتقار والسحق، وينتعش ويحيا بنفسه إلى حد لم يعد يستطيع معه تجاهله.

لقد أمضى ساعات لا تُحصى وحيداً مع ذكرى أناليزا أثناء الأيام القليلة الماضية، يتذكر كيف ماتت وطريقتها في العيش بإنقاذ الأولاد المرضى. كانت امرأة رائعة غير أنانية، وما كانت لترضى له بالألم، والحزن والوحدة بقية حياته.

في مكان ما في أعماق الليل، منذ ساعات، هذه البصيرة في أعماقه حررته من سجن إنكار الذات وجعلته يفهم أنه يحب ماري أومارا من كل قلبه، إلى حد لم يعد يشعر معه بالذنب. والأكثر من ذلك أنه شعر بأن أناليزا سيتملكها الحزن إن عاد إلى ذلك الشعور.

ولكن الآن وقد اعترف أخيراً بأنه يحب ماري، كان مرغماً على أن يواجه مأساة أكبر، ذلك أن الحقيقة المحزنة الساخرة كانت أن ماري قد لا تعلم أبداً.

لن يستطيع أبداً أن يخبرها من يكون فتعلم أنه محتال. لن يلمسها أبداً أو يتمكن من أن يحدثها عن شعوره نحوها. بسبب كذبه، عليه أن يمضي حياته وحيداً، مثقلاً بفكرة أنه وجد شيئاً رائعاً نقياً فضاع منه، بسبب كذبه.

تململ، ونظر إلى الغابة باحثاً عن عزاء مهما كان ضئيلاً، متمنياً لو أن بإمكان جمال وهدوء هذه الغابة الجبلية أن يمحو آلامه وكآبته.

تابع يقول عابساً: «هناك شيء ستعتبرينه مضحكاً، هو أيضاً، وهو أنني، بسبب هذه التمثيلية، لن أستطيع أبداً أن أخبرها بحبي لها. أنا أعلم هذا».

- أنت، على الأقل، تفكر منطقياً بهذه النقطة.

ثم وضعت ذراعها حول خصره وشدّت عليه بشكل متملك، فتقدم إلى الأمام مجهداً متثاقلاً وهو يقول: «مهما كان شعورها نحوي، فهو لا يغيّر حقيقة أنني لا أحبك».

فشدّت على خصره: «كفى... لدينا ما يكفي من الوقت للحديث عن من يحب من. وعما يشكّل زواج الزميلين من نجاح، وذلك عندما نعود إلى بوسطن».

لم يجب تاغارت. لم يكن مزاجه يحتمل النقاش، وهو يعرف لي وأنها لن تستسلم بسهولة. فلتعتقد ما تريد فهذا لن يغير من الأمر شيئاً. وعاجلاً أم آجلاً عليها أن تواجه حقيقة أن علاقتهما، قد انتهت.

خلف الأشجار انتهى الطريق إلى مرج أخضر فسيح متألق، وبعد خطوات قليلة أصبح بإمكان تاغارت أن يرى النهر الصغير يتألق في الشمس، ويسمع خرير مياهه الضحلة وهي تندفع فوق أرضه الصخرية وإلى الجانب الآخر من المياه، كانت ماري قد بسطت بطانية وسط الأزهار.

- يبدو أن ماتيلدا قد جهزت كل شيء. ربما من حسن الحظ على كل حال، أن يكون لدينا فتاة تخدمنا تحمل لنا أشياءها وتعدّ المائدة.

ومن دون أن ينظر تاغارت إليها، كان يشعر بابتسامتها العريضة الشامتة وهي تقول ذلك. فتمتم:

- ستانتون، اسمها ماري وإذا غيّرت اسمها مرة أخرى سأقذفك من فوق الصخور.

ضحكت عالياً: «أحب أن أراك ثائراً، يا «تاغ».

- ثم اسمي بونر.

فراحت لي تضحك ساخرة.

* * *

حاولت ماري أن تتجاهل اشتباكهما عندما دخلا المرج، وهي تجاهد لكي تتغاضى عن النبرة الشهوانية في ضحكة لي، شاعرة بأنها خادمة أُحضرت لكي تنحني احتراماً واستسلاماً وتنظف الأرض لأجل السيد وصاحبته.

تنفست بعمق لكي تتغلب على ارتباكها، ثم أخذت تخرج الطعام الذي

أعدّته بولين. كان هناك دجاج مقلي وبطاطا وسلطة وخبز وحلوى الشكولاتة. كانت ماري تعلم أن الطعام الذي تعده بولين هو الأفضل في العالم. لكنها كانت تشعر بغثيان لم تظن معه إن بإمكانها أن تأكل شيئاً.

أخذت لي تغني بصوت مرتفع وابتسامة عريضة، وتساءلت ماري عما جعلها تبتهج. لقد ابتدأت المحامية الجميلة رحلتها بتجهم ويبدو أن شيئاً في الطريق جعل سلوكها يتحسن. ولم تشأ ماري أن تمعن التفكير في ما عسى أن يكون السبب بعد أن تأخر الإثنان إلى هذا الحد عن الوصول...

قالت لها لي بدلال: «ما أحلاك لتجهيزك كل شيء».

وأبعدت عنها ببطء ذراعي بونر لتجلس على البطانية وهي تتابع: «لا أدري كيف تطيقون، أنتم سكان الجبال، هذ الهواء الجاف».

حاولت ماري الحفاظ على اتزانها وهي تقول: «إذا لم يكن لديكما مانع، أريد أن أعود إلى البيت لأنني أشعر بصداع...».

فقالت: «لا تكوني حمقاء».

ومدت لها يدها وكأنها تتوقع منها أن تأخذها. حسناً، عليها أن تنتظر كثيراً قبل أن يحدث ذلك، كما أخذت ماري تفكر بينما لي تتابع: «إجلسي معنا».

ويبدو أنها أدركت كراهية الفتاة لأخذ يدها فأخذت تربت على البطانية: «حملت هذه السلة طوال الطريق ولا تريدين أن تأكلي من هذا الطعام اللذيذ».

أدهش قولها هذا ماري. لم تكن تظن أن لي يمكن أن تمدح هذا الطعام الدسم.

قال بونر بهدوء: «أرجوك يا ماري. ابقي معنا».

كانت ملامحه جادة إلى حد جعلها تكاد تصدق أنه يعني ذلك. بدا طيباً، عليها أن تعترف له بذلك. وبإمكانه أن يبدو مخلصاً. لكنه طبعاً يفعل ذلك لكي يمنع ميزويتي من تغيير وصيتها.

كل هذا يجعل تصميمها على العودة إلى البيت أقوى.

ما عدا أن ميزويتي طلبت بالتحديد أن تذهب ماري معهما إلى هذه النزهة. لم تقل لماذا. لم تصرّ على ذهابها بل أمسكت بيديها، وعيناها تتوسلان: «أرجوك يا ماري، إفعلي هذا لأجلي».

تذكرت لمعان المشاعر في عيني ميز ويتي وملامحها الجادة المتوسلة، فعادت وجلست كارهة: «لا بأس، لفترة فقط».

قالت هذا دون أن تحاول إخفاء نفورها، ونقلت بصرها من بونر إلى لي، وقد أحدثت ابتسامة المرأة الغريبة في جسدها قشعريرة توجس.

نظرت لي إلى الأطباق أمامها: «هذا رائع. يمكننا الآن أن نتعرف إلى بعضنا البعض».

وقالت لبونر: «إجلس، إجلس. ستتصلّب رقبتانا، أنا وماري، ونحن ننظر إليك واقفاً هناك كتمثال قائد حرب».

حاولت ماري ألا تنظر إلى بونر وهو يجلس في الجهة المقابلة لها. وركزت انتباهها على فتح الأطباق، وهي تقول: «الصحون والفوط وأدوات المائدة في السلة. أرجوك أن توزع ذلك يا بونر».

بعد ذلك بثلث ساعة، كانت ماري قد أرغمت نفسها على أكل ما تقبّلته معدتها، ولاحظت أن لي أكلت نفس المقدار تقريباً. أما بونر فقد أكل ما يمكن اعتباره وجبة كاملة.

لم تشترك ماري في الحديث إلا إذا كان موجهاً إليها مباشرة. وكانت أجوبتها مختصرة بتمتمة غير مفهومة ما جعل من الصعب جرّها إلى محاورة. وأخيراً تركاها تماماً، وهذا أراحها. كانت فقط تريد أن تنتهي من هذه المصيبة.

- إلى ماذا تنظر يا بونر؟

ألقت لي عليه هذا السؤال ما جعل ماري تضطر إلى النظر إليه.

كان يحدّق بعيداً، نحو نهاية المرج المنحدر وقد أبرزت أشعة الشمس جمال تقاسيم وجهه الحادة، مانحةً عينيه لمعاناً ذهبياً.

- هناك إيّل يرعى.

قال هذا لماري قبل أن يحوّل نظره إلى لي.

رغم أن نظرته كانت عادية، إلا أن ماري شعرت بتأثيرها يسخن الدم في عروقها. لعنت نفسها بصمت، وقاومت إحساسها ومشاعرها المهترئة، متسائلة إلى متى ستتمكن من مكافحة انجذابها إليه قبل أن تصل إلى مرحلة انهيار مشاعرها؟

وماذا بعد ذلك؟

- إيّل؟ أحقاً؟ إذا أردت أن تذهب لرؤيته عن قرب، لا تهتم بنا. سنكون هنا عندما تعود.

نظر إليها بعينين ضيقتين وكأنه يقيس تحركاتها: «لا يهم».

فابتسمت له: «بل إذهب. لم أعرف قط أنك عالم حيوانات ثديية».

تأملت ماري وجه بونر وهو يحدّق إلى لي. بدا أنه لم يستجب لتلاعبها بالألفاظ. ولكنها تابعت: «هيا ادرس حياة البراري. سنكون نحن على ما يرام».

فقال: «ستتصرفين بشكل حسن، أليس كذلك؟».

فمدت يدها وقرصت خده: «أعدك بذلك، يا حبي».

لم تفهم ماري ما كان بونر يعنيه بهذا الطلب. ماذا يتوقع أن يحدث؟ أن تحقّرها صديقته؟ هل يخاف أن تفسد لي خطته في أن يستميل ماري إليه؟ نظرت إليه بملامح عدائية للغاية وقالت: «إذا كنت تخاف أن تخبرني بأخطائك، لا تخف، رأيي السيء فيك مشيّد بالإسمنت، ولا شيء تضيفه لي يمكن أن يزيده سوءاً».

فقال وقد توتر فكه: «شكراً لتطمينك لي، والآن، إذا سمحتما».

ألم توضح له أنها لا تريده قريباً منها؟ عبث النسيم بشعرها فردّته عن عينيها وهي تقول: «شخصياً، أنا متلهفة لذهابك».

صرخت بصمت به أن لا يعود لأنه يجننها، فهي تحاول أن تكرهه، وتنسى روعة عناقه، نعم، فليذهب وليبتعد عن نظرها وقلبها.

وقف بونر وسار نحو نهاية الغابة، وتجاهلته ماري بكل قواها.

وقالت لي وهي تستند إلى الخلف على يديها: «أخيراً أصبحنا وحدنا».

نظرت ماري إلى الشقراء، مرتبكة إزاء لهجتها العدائية. ابتسامة لي المتدفقة أثناء الغداء اختفت الآن:

ـ أنت مفتونة به. أليس كذلك؟

تقلبت ماري بحيرة: «أرجو المعذرة؟».

فأشارت لي باتجاه بونر: «لا تكوني غبية. بونر ويترينج... أنت مجنونة به».

التهبت وجنتا ماري. أذهلها هذا القول الجريء. خرست لحظة، وعندما وجدت صوتها كان ضعيفاً متلعثماً: «لماذا... لماذا؟ لا!».

وجاهدت لتمالك نفسها: «أنا أعمل عند جدته، وأنا أحبها كثيراً ولا أريدها أن تتألم».

وابتلعت ريقها، متمنية لو أن ما تصوغه في ذهنها هو الصحيح، لكنها كانت تعلم أنه كذب:

ـ وشعوري نحو السيد ويترينج يتوقف على نوع معاملته لجدته.

بقيت ملامح لي صارمة متشككة. وبعد دقيقة ابتسمت، ابتسامة ماكرة أكثر منها ودود: «آه، يا فتاتي، لو قلتِ هذا في منصة الشهود، لقضت عليك حكايتك هذه في نصف دقيقة».

تصلب جسم ماري وتملكها الاستياء والغضب لاعتبار المرأة لها كاذبة. وحقيقة أنها كذبت فعلاً جعل إخفاء استياءها أصعب: «ما الذي تحاولين أن تقوليه، يا آنسة ستانتون؟».

نظرت لي إلى الاتجاه الذي ذهب إليه بونر: «لا شيء. أحذّرك فقط من أن

ترفعي بصرك أكثر مما ينبغي، يا فتاتي القروية».

واتكأت على مرفقها فبدت مرتاحة في تفوقها المتغطرس وهي تتابع: «أعرف ماذا تشعر به فتاة مثلك عندما ترى رجلاً مثل بونر. ستبدأين بالتفكير: «ها هي ذي فرصة أترك فيها هذه الحياة البالية» يمكنني أن أفهم شعورك. من الطبيعي أن ترغبي في تحسين وضعك. ولكن بالنسبة إلى تا... أعني بونر ويترينج، هذا لن يحدث. كما ترين، أنا وبونر...».

وسكتت قليلاً ثم تابعت: «حسناً، فلنقل فقط أنه مرتبط، ولنقف عند هذا الحد».

وربتت على ركبة ماري: «أنا واثقة من أنك، يوماً ما، ستجدين حظّاباً ضخماً وسيسعدكما تربيا عائلتكما هنا فوق جبلكم. أنت وبونر لستما من نفس الطبقة. أنا لا أريد أن أجرحك، لكن الواقع هو الواقع».

واعتصرت ركبة ماري فحملقت هذه إليها. يا لكلامها الوقح السفيه هذا! من الواضح أن هذه المرأة لم يساورها لحظة شك في الطبقة التي تنتمي إليها. وقالت بهدوء: «أولاً، يا آنسة ستانتون، ارفعي يدك عن ركبتي».

تلاشت ابتسامة لي الزائفة، ورفعت يدها وكأنها احترقت.

ردت ماري شعرها إلى الخلف: «ثانياً، لا أريد بونر ويترينج ولو قُدِم لي على طبق من فضة لأنه يثير اشمئزازي. من أعطاك هذه الفكرة الجنونية عن أنني أشعر نحوه بغير الإزدراء؟».

– طبعاً هو الذي أخبرني. أثناء صعودنا إلى هنا أخبرني بأنك مجنونة به حباً، وكم يسبب له هذا من إحراج.

ونظرت إلى ماري بهزء وازدراء: «إنه يظنك مضحكة للغاية. وأنا الآن أردت أن أساعدك فقط، يا عزيزتي. أراك بتاً لطيفة ولا أريدك أن تتألمي».

شعرت ماري بالغثيان. كيف عرف ذلك؟ لا بد أنها غير قادرة على إخفاء افتتانها العنيد كما كانت تظن. فهي لم تكن تفعل سوى قذفه بالإهانات. هل هو

بهذه البراعة في فهم النساء بحيث عرف ما تشعر به؟ هل خانتها عيناها، أم هو عناقها الأحمق على الشرفة الأمامية؟

ابتلعت ريقها بصعوبة. ما أفظع هذا! إنها قمة الإذلال. بونر، بنبوغه الخداع في إظهار الإخلاص والتعاطف، كان يهزأ منها خلف ظهرها طوال الوقت!

أرغمت ماري مشاعرها المشوشة على الهدوء رغم إحساسها بوهن في ركبتيها، ثم وقفت وبجفاء وكبرياء قالت: «أقدّر لك... اهتمامك، يا لي. ولكن، هذا غير ضروري. أنا أحتقر السيد ويترينغ أكثر من أي إنسان على الأرض».

ثم سارت إلى حيث تهبط المنحدر نحو النهر وهي تقول: «أنت حرة في أن تنقلي إليه هذا الكلام عني».

٨ ـ عيد حزين

استيقظ تاغارت يوم الثلاثاء في التاسع والعشرين من تموز على خبر هو أن اليوم هو يوم مؤسس مدينة ويترينج، كولورادو، حسب قول بولين وروبي. وكانت المرأتان في المطبخ عندما نزل ليتناول فطوره. و«عيد المؤسس» هو عطلة محلية يحتفل فيه الناس، وفي نهاية اليوم تقام حفلة راقصة في قاعة المدينة. لم يتذكر أنه سمع كلمة عن ذلك حتى الآن. لكنه كان مشغول البال للغاية، خصوصاً منذ تلك النزهة.

بعد أن عاد إلى المرج بعد ربع ساعة من مراقبته الإيّل، كانت لي وحدها، وعلى وجهها ابتسامة عريضة ماكرة. وقد أقسمت بشرفها أنها لم تقل لماري شيئاً عن اعترافه بحبه لها، ولم تنادها باسم غير اسمها. وأصرّت على أن ماري قالت، بكل بساطة، إنها مشغولة، ثم أسرعت بالرحيل.

ولم يكن تاغارت غبياً فأدرك أن شيئاً قد حدث. وعنّف نفسه لتركهما وحدهما. لماذا لم يطع غريزته؟ لماذا وثق بلي؟ إنها مراوغة، والله وحده يعلم أي مكيدة تحوكها فقط للتسلية.

في المرة التالية التي رأى ماري فيها، قطّعت الكراهية التي رآها في عينيها، أنفاسه. وفي كل مرة يحدث أن ينظر في عينيها مصادفة، يحرق اللهب في عينيها أعماق كيانه.

دمّر ذلك روحه وأحرق قلبه، ولم يجد أمامه سوى أن يخفي آلامه. لقد وعد بونر وعليه أن يفي بوعده، مهما كانت معاناته مُرّة في سبيل ذلك. لقد أحب ميزويتي، وآخر ما يريده هو أن يحطم قلبها.

كانت السيدة العجوز الشعلة الوحيدة المضيئة في قلب تاغارت في هذا العيد اللطيف، «عيد المؤسس». وبما أن ماري لديها نصف نهار عطلة لتمضيه مع أختها بيكا، تطوع تاغارت لمرافقة جدة بونر خلال احتفال العيد. كانت مفعمة بالمرح، ومستمتعة بكل دقيقة تمضيها مع الرجل الذي تحسبه حفيدها. حتى أن بهجتها انعشت حالة تاغارت النفسية بشكل ما.

ومن ناحية أخرى، وجود لي المتملك أرهقه، مهدداً بإعادة حالته النفسية إلى ما كانت عليه. كانت زميلة تاغارت في قمة لطفها أمام ميزويتي. لكنه كان يعلم أنها تفضل أن تسجن المرأة العجوز في مرحاض على أن تمضي دقيقة واحدة معها، فكيف بطوال فترة العصر! ومع أن ميزويتي كانت هي أيضاً بشوشاً مبتهجة معهما، أحس تاغارت بأنها، في أعماقها، كانت تكره هذه الشقراء الآتية من بوسطن.

كان لهذه الجولة أن تكون ادعاء مؤلماً للغاية بالنسبة إليه، لولا نظرات ميز ويتي إليه، من وقت لآخر، بعينين يملأهما الحنان والحب. ورغم علمه أنها تظنه شخصاً آخر استمتع بحنان الجدة.

ذُهل وهو يدرك أنه خلال أسبوع فقط، أصبح متعلقاً تماماً بجدة بونر. وحيّره شعوره البالغ نحوها بالقرابة. إنها امرأة مشرقة متفائلة سخية الطباع طيبة القلب. وهي تستحق السعادة والتكريم من قريبها الحيّ الوحيد وليس الهجران. وأدرك تاغارت أنه ليس الوحيد الذي يشعر بذلك نحوها، من الحماسة التي كان سكان المدينة يحيّونها بها. كانت، دون شك، امرأة محبوبة محترمة تماماً. اشمئز من نفسه لخداعه لها. ولكن ستزداد آلامها لو عرفت الحقيقة. وكيف سيحتمل قلبها الصدمة؟ لا. إخبارها بالحقيقة هو مجازفة لا يجرؤ على الإقدام عليها.

سمع تاغارت صوتاً مألوفاً فالتفت ليرى بولين تبتسم له وتلّوح له بيدها. وكانت ترتدي ملابس عادية مؤلفة من بنطلون جينز وقميص مقفل بأزرار.

أشارت إلى جو، صديقها، الذي كان واقفاً بجانبها والسرور الهادىء

يكسو ملامحه. ومدت يدها تلمس ذراع حبيبها بحنان. تأبطت لي ذراع تاغارت وهمست له: «متى يمكننا إبعاد المرأة العجوز لنبقى وحدنا؟».

فألقى عليها نظرة لا تبشر بالخير: «عندما تريد هي أن تذهب إلى البيت نذهب معها».

فقالت تنوح في أذنه: «آه، أرجوووك..».

فقال بصوت منخفض: «ستانتون. لم يرغمك أحد على القدوم».

قالت ميز ويتي: «تلك هي ماري مع بيكا... ماري... ماري أومارا!».

أخذت تصيح بذلك وهي تلوح بيدها ورآها تاغارت خلف الحشود. كانت مع فتاة صغيرة ذات شعر أشقر طويل تجلسان على مقعد خشبي في محطة الحافلات.

كانت بيكا تجلس في حضن ماري وذراعاها تطوقان عنقها. وكان وجه الطفلة يفيض بالحيوية والنشاط والابتسام وهي تتحدث بينما كانت ماري تمرّ بيدها على شعرها بأمومة حلوة.

كانت تمحو أي أمل في أن تسمع ماري تحية ميزي ويتي. وقالت هذه له أخيراً: «آه، لا داعي لإزعاجهما. فلنتركهما وحدهما. ماري وبيكا لا تلتقيان كثيراً فهما سعيدتان معاً».

كان واضحاً أن ميز ويتي تأثرت بمنظرهما العاطفي هذا.

فقالت لي: «هذه فكرة ممتازة، فلنجلس في مكان ما».

وبينما كانوا يتوجهون نحو كشك مجاور، كان اهتمام تاغارت منصباً على ماري.

ضحكت لشيء قالته بيكا، وكانت ملامحها سعيدة منتعشة. ورغم أنه لم يكن يسمعها، فقد تصوّر صوتها المرح الرنان. قبّلت جبين أختها وسوّت كنزتها الصفراء. وإذا برجل يناهز الخمسين من عمره يأتي من خلفهما ويقول شيئاً جعلهما تقفزان وتحدقان فيه.

كان الرجل سميناً ووجهه المربع مغطى بلحية بيضاء لم تُحلق منذ عدة أيام وقد خط الشيب شعره الأشعث وكان يلبس قميصاً أسود مقفلاً تدلّى عليه حرف

اسمه مزخرفاً باللون الأحمر. وكان ساعده الأيسر مغطى بالوشم من المعصم إلى المرفق. بدا غاضباً وهو يصيح بشيء ما ثم يمسك بيكا من معصمها.

وقفت ماري محاولة أن ترفع الطفلة لكنه لم يترك المعصم الصغير.

سأل تاغارت ميزويتي عائداً باهتمامها إلى المقعد الخشبي: «من يكون ذلك الواقف مع ماري وأختها؟».

فأجابت متكدرة: «آه، رباه. إنه جو لكنز والد بيكا».

أخذ الرجل بيكا من ماري ورفعها من فوق مسند المقعد. وانفجرت بيكا باكية بينما قالت ماري شيئاً للرجل وقد بدا الغضب واضحاً على حركات جسدها. حاول الرجل إبعادها، ثم استدار نافضاً ذراعها عنه بعنف.

فقالت ميزويتي: «آه، لا. لقد وعد ذلك البربري بأن يسمح للطفلة بالبقاء في الكرنفال طوال بعد الظهر، بينما الساعة الآن لم تصبح الثالثة بعد».

تملك الغضب تاغارت وهو يرى ماري تلحق بالرجل، مظهرة غضبها بالصراخ وتقبض يديها بينما كانت بيكا تشهق باكية وهي تمدّ ذراعيها من وراء ظهر أبيها متوسلة.

– ذلك النغل.

وترك تاغارت كرسي ميز ويتي، يريد أن يوقف ذلك الأحمق عند حده. لكن لي أمسكت بذراعه: «قف عندك، ماذا تنوي أن تفعل؟».

فحملق فيها بعداء: «لا يمكن لذلك النغل أن يفعل ذلك».

فرفعت حاجبها محذرة: «بل يمكنه ذلك. إذا كان هو والد الطفلة يمكنه أن يفعل ما يريد. أنا محامية، ونحن المحامين نعرف هذه الأمور».

نظر إليها متجهماً، متمنياً لو كانت مخطئة. وبعد لحظة عاد يركز اهتمامه على ماري ومشكلتها. وكانت هذه قد توقفت الآن عن اللحاق بلكنز وبيكا وغطت عينيها بقبضتيها الصغيرتين ومضت تبكي بعجز.

لم يستطع أن يرى هذا المشهد دون أن يفعل شيئاً لكن الحق مع لي. تدّخله لن ينفع، لأن لكنز لم يخالف القانون بشيء. فإذا تدخل تاغارت، لدى الرجل الحق في الادعاء ضده وتورطه مع القانون سيضطره إلى كشف هويته الحقيقية. مغامرته هذه أوشكت على نهايتها، وقد نجحت تقريباً، على الأقل بالنسبة إلى سعادة ميزويتي.

توترت شفتاه وحملق في لكنز، وبدا هذا عديم الاهتمام بحزن ابنته وهو يصعد إلى شاحنة، ويلقي بها بين ذراعي امرأة ذات شعر أحمر أشعث. فسأل: «من هي تلك المرأة؟».

هزت ميزويتي رأسها: «إنها آخر صديقات جو، كما أظن. مسكينة بيكا ومسكينة ماري. ذلك الوحش القاسي القلب لا يستحق تلك الطفلة».

صفق جو باب الشاحنة، ثم استدار وصعد إلى مقعد القيادة وبعد دقيقة توارت الشاحنة عن الأنظار.

قالت له ميزويتي وهي تلمس يده: «هيا بنا يا بونر. الوضع محزن، ولكن الأمر ليس بيدنا فنحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً. جو هو والد الطفلة، يا ليت بإمكاننا تعزية ماري، ولكن حسب معرفتي بها سترغب في أن تكون وحدها الآن لكي تتمالك نفسها. وهي، هكذا، منعزلة تماماً».

استطاعت ميزويتي بلمستها له أن تجذب انتباهه ولكن ليس نظره فقد بقي ذلك معلقاً بماري.

كانت تقف وظهرها إليهم، وشعرها الطويل الأسود يعبث به النسيم. كان وضعها ينبيء بحزنها وهي تحني رأسها وتغطي فمها بيدها. حتى من مسافة حوالي ثلاثين متراً، استطاع تاغارت أن يرى أصابعها ترتجف.

تلهف إلى الذهاب إليها واحتضانها، لكنه كان يعلم أن محاولته غير مرحب بها.

* * *

لم تستطع ماري أن تحتمل فكرة الذهاب إلى الحفلة الراقصة. هذا العيد الذي تلهفت للاستمتاع به مع بيكا، انتهى بقسوة وتعاسة بالغة. لم تمض مع بيكا سوى ساعة وإذا بأبيها يأتي ويدمر كل شيء. ما الذي يضرّ ابنة الخامسة لو تمضي ساعتين في احتفالات العيد في مثل هذا اليوم الجميل مع أختها؟

بالكاد انتهتا من تناول الغداء وتمشتا لتجلسا على هذا المقعد الخشبي وفجأة، إذا ببيكا ترحل.. مرة أخرى.

تملكت الدهشة ماري عندما رأت جو يقود، فقد كانت رخصة القيادة قد سُحبت منه في السنة الماضية لقيادته السيارة في حالة من الثمالة.

وتملكها الخوف. كيف يجرؤ على تعريض بيكا لمثل هذا الخطر؟ وعندما تحدته أخذ يشتمها وحذرها من التدخل في ما لا يعنيها.

كانت ماري من تحطم القلب بحيث لم تكن تريد أن تذهب إلى الحفلة الراقصة، لولا إصرار ميز ويتي عليها بذلك. لم تستطع أن تتصور قيامها بأي شيء عدا جلوسها في غرفتها تغرق أحزانها بالدموع. ومن ناحية أخرى شعرت ماري بالتزام نحو مخدومتها، لا سيما وأن هذا العيد هام للغاية بالنسبة إلى ميز ويتي لأنها كانت الوحيدة الباقية من سلالة مؤسس المدينة، بالإضافة إلى بونر ويترينج، طبعاً.

إلتوى قلبها عندما فكرت فيه. ذلك المغرور المعتوه عديم الإحساس الذي يتبجح بأنها واقعة في غرامه. وقد تبجح بذلك أمام مثيلته في انعدام الإحساس، عشيقته المحامية. في كل مرة تعود هذه الفكرة البشعة إلى ذهنها، تتمنى لو تموت. هل كان طوال ذلك الوقت يهزأ منها؟

وتمنت لو تقتلع عينيه وترفس ساقيه... و... و... وابتلعت ريقها بصعوبة، وغالبت دموعاً فاضت بها عيناها. شعرت بارتياح لأن قاعة المدينة لم تكن مضاءة سوى بأنوار خافتة تزين الجدران وتشابه النجوم. تلهفت إلى أن لا تشعر بشيء نحو بونر فوجدت نفسها تتمنى أن تتحرر من سحره الخداع طالبة مساعدة تلك النجوم الزائفة المعلقة فوق الرؤوس لكن ذلك لم ينجح.

كانت فرقة محلية تعزف الموسيقى أمام قاعة الرقص. وفي الحلبة كان الراقصون يتنقلون ببطء على أنغام الموسيقى الشاعرية. وكانت مثقلة بمختلف أنواع الأطعمة اللذيذة، والكراسي ممتدة على طول الجدران ليرتاح عليها المتعبون من الرقص.

وما زاد من عدم ارتياح ماري أن أغلب الأغاني الراقصة كانت بطيئة شاعرية للغاية، أكثر منها مرحة صاخبة. رأت، آسفة، أن ملابسها لا تتناسب مع الموسيقى السريعة الصاخبة، كانت ترتدي ثوب سهرة طويلاً مخرماً يصل إلى كاحليها كانت قد اختارته من مجلة أزياء. وإذ كان قماشه أرق من أن يدفئها في ليالي جو المرتفعات هذه أصرت ميزويتي عليها أن تستعير منها «الوشاح» الوردي الرائع الجمال فكان رائعاً على الثوب وملائماً لبرودة الليل.

وهكذا، لأجل ميزويتي، وضعت ماري على وجهها قناعاً مرحاً ورقصت وضحكت وحاولت قدر إمكانها، ألا تفتش عن بونر بعينيها أو عقلها أو قلبها.

ولم يكن ذلك سهلاً، بوجود لي التي بدت متألقة في بلوزتها البيضاء اللماعة إلى قرطيها الماسيين اللذين كانا يعكسان الأضواء كلما تحركت. وكانت تنورتها المستقيمة محكمة على جسدها بشكل رائع. وحدهن عارضات الأزياء والممثلات الراقيات يمكنهن الظهور بهذه الأناقة، لكن لي تمكنت من ذلك بقوامها الطويل النحيل وحنكتها وثقافتها. وكلما نظرت ماري إليها ازدادت إحساساً بأنها بدينة وباهتة للغاية.

ابتسمت لمرافقها بتحية صامتة ثم حولت انتباهها إلى البعيد متوترة الأعصاب، وابتدأت أغنية عاطفية بطيئة أخرى. عندما أصبحت واثقة من أن آخر مراقص لها توارى بين الجموع تراجعت خطوة عن المائدة فاصطدمت بشخص ما هو من صلابة الجسم بحيث أدركت أنه رجل... ورجل ضخم لأنه لم يتزحزح حين اصطدمت به. قالت: «آه، آسفة، لم أكن أنظر...».

وإذا بها ترى نفسها بوجه بونر ويترينج، فمات اعتذارها وابتسامتها المهذبة

بسرعة. ويبدو أن ذهنها مات هو أيضاً لأنها لم تستطع أن تفكر بشيء سوى الحملقة فيه.

قال برقة: «ما من مشكلة، يا آنسة أومارا. فقد داستني النساء من قبل».

وبدا التواء على شفتيه وكأنه سيبتسم لكنه لم يفعل. وتساءلت عما يجعله يخفي ضحكته ما دام يجد الهزء منها سهلاً في ظهرها.

- في الحقيقة، أنت لست أول امرأة تصطدم بي الليلة. كنت على وشك أن أطلب منك الرقص معي.

وأشار إلى الغرفة المحتشدة بالراقصين: «لك كامل الحرية في أن تصطدمي بي هناك. يساورني شعور بأن ذلك سيسرك».

مهما كانت رغبتها في الموافقة، إلا أنها لم تجب ولم تتحرك. وقبل أن تدرك ما يحدث، أخذ يدها واحتضنها بين ذراعيه، وبعد ذلك بلحظة كانا يتمايلان على أنغام الموسيقى.

طرفت بجفنيها وحدقت في قميصه الأبيض. لم تشأ أن تفكر في مدى ما يبدو عليه من روعة، في بنطلونه الأسود وسترته الفاتحة. كما أن رائحته كانت حلوة فياضة بالرجولة. كانت رائحة من النوع الذي تتمنى أن تدفن أنفها فيها وتنتشقها حتى تفقد الوعي.

همس يقول مبدداً الضباب الذي ابتدأ يغلف ذهنها: «تبدين جميلة الليلة».

لم يكن يبتسم لكنه كان ينظر إليها بذلك الإخلاص الزائف الذي يبدو حقيقياً تماماً. كان في عينيه إغراء مقلق. ألقت بالحذر جانباً وقست قلبها قائلة: «أفضل ألا أتحدث إذا لم يكن لديك مانع».

قطب حاجبيه ونظر بعيداً لحظة، ثم عاد يقول: «طبعاً».

تابعا الرقص. ورغم أنها ركزت اهتمامها على النظر إلى قميصه، إلا أنها شعرت بنظراته على شعرها، ووجهها، وعنقها وكتفها. بدا وكأن الزمن توقف لكنهما تابعا الرقص. وتنهدت بعمق متمنية لو تبقى بين ذراعيه إلى

الأبد، متمنية لو أنه ليس ذلك الفتى العابث الطائش. إنها تريده مجرد رجل عادي صادق.

- آسف لما حدث مع بيكا عصر هذا اليوم.

أجفلت إلى حد نسيت معه طلبها منه عدم الكلام معها: «كيف عرفت بذلك؟».

فقال بعطف: «رأينا ذلك. هل حاولت أن ترفعي دعوى طلب وصاية عليها؟».

أجفلت لسخرية هذا السؤال: «لا، بل جو هو من فعل ذلك».

- ماذا؟

هزت كتفيها: «تركت أمي وصية تطلب فيها أن تكون بيكا معي جزءاً من العام. لكن جو لم يقبل بذلك. وهكذا أخذني إلى المحكمة. وانتهى قرار المحكمة إلى أن آخذ أنا بيكا أول أسبوعين من كل شهر آب، لأنه عيد ميلاد بيكا، وكل عيد ميلاد».

واغرورقت عيناها بالدموع فغالبتها: «ولا يمكن لجو أن يغيّر إقامته دون أن يعلمني أولاً. عندما أيّد القاضي وصية أمي، ثار غضب جو وازداد تصميماً على أن يبقينا متفرقتين. بذل جهده لكي يعرقل أي شيء ليس منصوصاً عليه بجزم في قرار المحكمة. إنه يلغي ما نخططه في آخر لحظة، كما حدث اليوم. خرجنا أنا وبيكا معاً، لكن جو جاء مبكراً وأخذها قبل الوقت المفروض».

مسحت دمعة عن خدها ثم حولت نظرها بارتباك: «مهما كان جو سيئاً فهو أبوها والمحكمة لا تفصل الولد عن أبيه دون سبب وجيه. يبدو أن كونه غبياً أحمق ليس سبباً وجيهاً».

اختلست نظرة إلى وجهه لكن هاتين العينين كانتا من التفهم وعمق الإحساس بحيث لم تستطع مواجهتهما. فحوّلت عينيها عنه بسرعة: «غداً هو أول آب، وهكذا آخذها لمدة أسبوعين كاملين. الحمد لله لأنه لا يستطيع أن

يقوم بشيء ضد هذا الأمر».

بقي بونر فترة طويلة صامتاً، طويلة إلى حد دفع ماري إلى أن تقاوم تأثير جاذبيته مرة أخرى. تملكها الأسف لأنها طلبت منه أن لا يتكلم. التحاور معه يصرف ذهنها، على الأقل، عن روعة رائحته، ولذة الرقص معه. شعرت بالشوق يملأ كيانها. وتقطعت أنفاسها وأخذت تلهث قليلاً: «حسناً؟».

أرادت أن يتحدثا... أي حديث ولو كان... موضوعاً تعيساً عن جو لكنز. إذا لم تشغل ذهنها بشيء آخر حالاً، فهي تخشى أن تقف على أطراف أصابعها وتعانقه.

- حسناً ماذا؟.

سألها وأنفاسه تلامس وجنتيها، وبهمس دافىء مغرٍ جعل ركبتيها تضعفان.

- أليس لديك ما تقوله لي؟

كانت ملامحه غامضة، وعيناه تعكسان ضوءاً خفيفاً أبيض لا غير. توتر فكه وهز رأسه وقد بدا عليه الأسف بشكل غريب: «لا، يا ماري. ليس هناك ما يمكنني قوله».

* * *

جلس تاغارت على حافة سريره متململاً. إنها الساعة الثامنة تقريباً ولا بد أن لي أنهت فطورها، وسترحل بعد دقائق إلى مطار دينفر حيث تغادر الطائرة ظهراً، عائدة إلى بوسطن. سينزل لوداعها لكنه لا يريد أن يبقى لحظة واحدة بعد ذلك.

لقد أنهكته الأيام الست الأخيرة بعنادها ورفضها أن تصدق أي شيء عدا أحلامها الخداعة عنهما، بالإضافة إلى تمثيلية دور بونر. وخوفاً من أن تكشف أمره، صبر على ملامسات لي وتقربها إليه.

انحنى متكئاً على فخذيه، مسترجعاً ذكرى حفلة الليلة الماضية، وزينة قاعة الرقص بمئات «الأضواء» الصغيرة. فأعادت الذكرى البهجة إلى نفسه المنهكة

وجعلته يبتسم.

تمنى لو أنه غير مضطر إلى الرحيل يوم الجمعة، تمنى لو أنه غير مضطر إطلاقاً إلى الرحيل. تمنى لو عرف ماري في ظروف مختلفة تماماً، تمنى لو لم يكن محامياً.

قبل أن يجيء إلى ويترينج ويتعرف إلى ماري وميزويتي، كان تاغارت قد نسي أن سبب دراسته الحقوق للعمل في المحاماة هو أن يساعد الأبرياء، والمتهمين ظلماً. كانت تلك رسالة، تماماً كما هو الحال بالنسبة إلى ماري والتمريض.

رسالة؟ تمتم دون أن يتذكر متى قام بآخر عمل إنساني للخير العام. من المؤكد أن ذلك لم يكن منذ ماتت أناليزا. لقد باع نفسه مقابل المال والترف...

وسمع طرقاً على بابه: «نعم؟».

- هذا أنا، يا حبي.

تملكه الغيظ فنظر إلى ساعته. الثامنة تماماً، ميزة واحدة تحافظ عليها لي... الدقة في المواعيد. سار إلى الباب: «آسف، لم أنتبه إلى الوقت».

ألقى ذراعه حول كتفها وسار معها إلى السلم. آخر شيء يريده هو أن يكون معها وحدهما في غرفة النوم.

- ابتدأت أظن أنك تريد أن تتجنبني.

- طبعاً لا.

وكان هذا كذباً. وإذا لم تستنتج ذلك حتى الآن، فهذا يعني أنها ليست تلك المحامية الماهرة كما كان يحسبها.

هبطا السلم وتوجها نحو الباب الأمامي: «سأحضر لك حقائبك».

- لا ضرورة لذلك. جو صديق بولين كان هنا منذ فترة فأنزلها ووضعها في صندوق سيارتي.

وعندما قادها إلى مدخل الباب، وضعت ذراعها حول خصره وشدته إليها: «ألا يستطيع ذلك الرجل أن يتكلم؟».

- إنه من النوع القويّ الصامت.

قال ذلك شاكراً لتغيير موضوع الحديث.

نزلا الدرجات بينما هي تقول: «حسناً، لا أحب ذلك النوع».

وعندما وصلا إلى السيارة استدارت تواجهه ثم وضعت ذراعيها حول رقبته: «أحب الرجل الذي يتحدث إليّ».

وابتسمت: «ألن تودّعني بحرارة؟».

ألم تعرف بعد أنها لن تحصل منه على ما تريد؟ كانت ابتسامته رقيقة لكنها خاطفة.

- أتمنى لك رحلة طيبة، يا لي.

مرت سحابة على ملامحها، ولكن قبل أن يستوعب تاغارت تماماً ما رأى أمسكت بوجهه بين راحتيها وعانقته بقوة. لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يمسك بيديها برفق ولكن بحزم، ثم يخلص وجهه منهما ويدفعهما عنه.

همست: «يا ليتك ذاهب معي، يا حبي».

- سأعود لأحضر اجتماع مساء الجمعة. الأفضل أن تذهبي لئلا تتأخري على المطار.

نظرت في عينيه بإمعان، ربما آملة أن تجد فيهما شيئاً لأجلها. وبعد لحظة طويلة، تغيّرت ملامحها فأصبحت رقيقة. واغرورقت عيناها بالدموع.

مظهرها هذا حمل أثراً من كآبة، وكأنها، في أعماقها، واجهت أخيراً الحقيقة. وهي أن تاغارت لنكستر لم يعد حبيبها، ولن يعود أبداً كذلك.

- انتبهي إلى القيادة.

نظرت بعيداً لحظة قبل أن تواجه عينيه مرة أخرى: «لا بأس». ورفعت يديها كأنها تريد أن تمسك وجهه مرة أخرى، ولكن يبدو أنها غيرت رأيها فأنزلتهما في آخر لحظة، وعادت إليها ابتسامتها الوقحة، لكن تاغارت أدرك أنها زائفة. الوميض في عينيها حدّث بالقصة الحقيقية.

قالت بصوت أجش: «أنت أحمق».

لم يستطع أن يخالفها الرأي فبقي صامتاً. بينما أومأت هي بخفة، معرفة بما يبدو أنها تقبّلته الآن بصفته حقيقة. تاغارت لم يعد يحبها. ابتلعت ريقها فشعر بأنها تحاول إزالة المشاعر من صوتها: «آه، يا حبي، يا لما ستفتقده! والآن إفتح لي باب السيارة كرجل مهذب».

فعل ذلك وقال: «الوداع، يا لي».

- الوداع، يا حبي.

وجلست أمام المقود وحوّلت اهتمامها إلى تسوية تنورتها وشدّ حزام المقعد حولها. وأحس هو أنها تغالب دموعها. لي ستانتون، المرأة الحديدية على وشك البكاء؟ تملكه شعور بالعطف لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً لأجلها.

زأر المحرك، والتقت نظراتهما... غمزته، محاولة أن تبدو لا مبالية. لكن المحاولة كانت فاشلة إذ سرعان ما لمعت الدموع في عينيها فحوّلت انتباهها إلى المرآة، ثم استدارت بالسيارة لتندفع إلى الأمام مثيرة خلفها سحابة من الغبار.

خروج لي بهذه السرعة كان تذكاراً لاسعاً لعذابها وقنوطها. الحصى التي قذفت بها العجلات كانت تماثل الهجوم والضرب. ومع ذلك شعر تاغارت بالتزامه بالوقوف حتى غابت السيارة خلف الأشجار التي تحجب الطريق.

عندما تلاشى صوت سيارتها، شعر بحمل ثقيل ينزل عن كتفيه، ليحل مكانه إحساس بالذنب. اللعنة! ليس هناك ما يشعر نحوه بالذنب. كانت لي تعلم أن علاقتهما انتهت قبل أن تحضر إلى هنا دون علم مسبق. وأي حزن عانته، هي التي جلبته على نفسها.

وقف لحظات يحدق في أثرها إلى الغبار المتصاعد في الجو، ثم دخل المنزل وصعد إلى غرفته. وفي الداخل، خلف الباب الموصد، وقف دون حراك ينظر إلى الفراغ، محاولاً ألا يفكر في أي شيء.

أخرجه من تأملاته قرع خفيف على الباب.

-من؟

- أنا ماري.

أجفل، لا بل صُدم. طوال وقت وجوده هنا، لم تأت قط إلى بابه. استدار وقد تملكه الفرح: «أدخلي».

أدارت مقبض الباب، وبعد دهر فتحته ودخلت وقد بان عليها الاتزان. كانت تحمل بين ذراعيها هدايا ملفوفةً بورق ملون لامع. أخذا يتأمل ألوانها الصفراء والقرمزية والوردية المزينة برسوم وبالونات. حتى ولو كان بونر وماري على وفاق، كان واضحاً أن هذه الهدايا ليست له. لكنه لم يهتم لمن عسى أن تكون، لأن المرح الذي شعر به لمجرد رؤيتها عنده أشعره بخلوّ البال وحتى بالدوار. وقال لها مازحاً وهو يتقدم ليحمل هذا الثقل عنها: «ما كان لك أن تزعجي نفسك، يا آنسة أومارا. لقد تأثرت».

شبكت يديها فوق صدرها وتنفست بعمق: «آسفة لإزعاجك... يا بونر».

كان ضيقها واضحاً لكنها أخفته خلف قناع مهذب: «بيكا ستأتي صباح الجمعة. وكنت أختزن هدايا عيد ميلادها في غرفتها. وبما أن عيد ميلادها يوم الأحد، كان عليّ أن أخفي هذه الهدايا عنها. السنة الماضية أخفيتها في خزانة الحائط هنا، فإذا كان لديك مجال، وليس لديك مانع...».

تبدد كلامها لكن الأعين تلاقت لحظة قال بعدها: «آه، بكل تأكيد. لا مشكلة».

ثم استدار وفتح الخزانة ورفع العلب إلى الرف: «هل لديك غيرها؟».

- بعض الأشياء.

- يسرني أن أساعدك.

وخرج من الخزانة، ثم واجهها. لكنها كانت قد ذهبت. ضحك ساخراً بصوت خافت وهو يتمتم: ماذا كنت تتوقع، يا لنكستر؟

وبصوت مرتفع نادى: «دعيني أساعدك». وعندما لم تجب اجتاز الردهة

ودخل غرفة بيكا. لم يدخلها قط من قبل فدهش للزينة البديعة. كانت الغرفة صغيرة بنصف حجم غرفته تقريباً، مشمسة مهوّاة ومريحة.

كان السرير مغطى بالأبيض وقد تناثر فوقه حوالى دزينة من الوسائد، أسندت إليها دمى ترتدي ملابس ملونة. وكانت الجدران وردية مزينة وتغطي أرض الحجرة سجادة بألوان قرمزية وخضراء ووردية، كما كانت ستائر النافذة خفيفة شفافة.

أوماً تاغارت إعجاباً: «لا بد أنها تحب هذه الغرفة».

تلاقت عيناه بعيني ماري وهي تخرج من خزانة الحائط علب الهدايا الملفوفة المتألقة الألوان. ولانت ملامحها إزاء مديحه: «إنها تحبها فعلاً».

وأدرك أنها تتصور أختها في ذهنها لأنها ابتسمت: «اختارت بيكا لون الجدران بنفسها وطلينا الجدران معاً». وضحكت بمرح، فأرسل رنين ضحكها رعشة في جسده.

ورغم أن ماري استمرت تتحدث إلى تاغارت، إلا أن نظراتها كانت شاردة مع الذكريات.

استمرت تبتسم وهي تتذكر الأوقات السعيدة مع أختها غير الشقيقة في هذه الغرفة. ملامحها الحلوة وتورد خديها كان لهما عليه نفس تأثير نجاحه في قضية صعبة في المحكمة... حين تنحبس أنفاسه. هكذا كان تأثير ابتسامة ماري عليه، ما عدا أن هذا التأثير كان مضاعفاً آلاف المرات. لم يستطع أن يمنع نفسه من مبادلتها الإبتسام. تباً!... لا بد أنه كان يبتسم منذ رآها على عتبة بابه.

ابتدأت العُلَب تنزلق من بين ذراعيها، فعاد يعرض عليها المساعدة: «دعيني أحمل هذه».

لم تشأ ذلك، ويبدو أنها عادت من أفكارها متأخرة عن تاغارت. كانت قريبة جداً منه بحيث لا يبعد وجهها عن وجهه سوى سنتيمترات قليلة. عرف أنها عادت إلى واقعها حين اتسعت عيناها وتلاشت ابتسامتها، فسألته وقد بدا

عليها الخوف: «ماذا... ماذا تفعل؟».

جرح الفزع في صوتها قلبه. إنه يحب هذه المرأة أكثر من حياته، بينما هي تخاف منه وتزدريه. وبالتالي فإن أي تصريح عن حقيقة هويته، وعن حبه سيضع سدى. واستطاع أن يبتسم معتذراً: «لا تخافي. كنت فقط آخذ الهدايا».

احمر وجهها بعنف: «آه، طبعاً». وأسبلت أهدابها بخجل وندم عميق. كان تأثير وجوده مثيراً قاسياً.

حاول الحفاظ على هدوئه فنظر بعيداً، مظهراً ارتياحاً لا يشعر به، ثم حمل الهدايا: «كل هذا لأجل عيد مولد بيكا! يا لها من فتاة صغيرة محظوظة».

- أظن حماستي كانت أكثر من اللازم.

قالت هذا، فلم يستطع أن يمنع نفسه من النظر إليها. ما زال يصبغ وجهها ذلك الاحمرار الفاتن.

- ابتدأت في شراء هداياها منذ نهاية عيد ميلادها الماضي. عندما يكون لدي بعض النقود التي تفيض عن قسط دروس التمريض أهرع لشراء أي شيء لها... أظنني أريد أن أدللها، بعد...

وهزت كتفيها ونظرت بعيداً وهي تعض شفتيها. فأدرك أنها تجد صعوبة في الحديث عن ظروف بيكا.

- نعم، أنا لا ألومك.

فنظرت إليه وسألته وهي تمسح دمعة: «لا تلومني؟».

أدهشه سؤالها: «أبداً، ولماذا أفعل؟».

قطبت جبينها وابتلعت ريقها ثم هزت رأسها: «يقول جو إن هذا ليس جيداً لأجلها... وإن العالم الحقيقي شديد القسوة، والأفضل أن تعرف هذا مبكراً».

- أرجوك، لا تقولي إنك تصغين إلى ذلك الأحمق.

- أنا مضطرة لذلك فهو والد بيكا.

- وأنت أختها.

كان يريد أن يجعلها تعود إلى الابتسام: «طالما أنك معها، فهي بخير».

نظرت ماري إلى السجادة وقطبت جبينها مفكرة: «أرجو ذلك. لكن مقاومة جو صعبة. لن يسمح لها بأخذ نصف هذه اللعب إلى البيت. ستبقى هنا تجمع الغبار. هذا ليس عدلاً».

- لو كان في الحياة عدل، لكان جو في السجن الآن.

نظرت إليه بسرعة، مدهوشة لما قال. وبعد لحظة ابتسمت ضاحكة: «سأدفع ما بإمكاني لكي أراه هناك».

بهجته البالغة لابتسامتها تركت فيه تأثيراً عميقاً فماتت الكلمات على شفتيه.

وقف مسحوراً بالابتسامة، واعياً لأول مرة للخيط الرفيع الذي امتد بينهما... ارتباط. وأحس بأنها شعرت به هي أيضاً... مهما كان مقدار دوامه... ثم تملكته سكينة نفسية غريبة. حاول أن يحفظ ملامحها عن ظهر قلب... تلك الإبتسامة. كان بحاجة إلى أن يستظهرها لأجل سنين الوحدة الطويلة التي أمامه.

* * *

كان تاغارت قدحزم أمتعته مستعداً للرحيل، وودّع بولين وروبي، ثم تناول فطوره مع ميزويتي وماري. كانت ساعة صعبة. لقد اختلفت الأمور معه ومع ماري منذ حفلة الرقص. ورغم أن ماري كانت تتجنبه كلما استطاعت ذلك، إلا أن سرورها الواضح بزيارة بيكا الوشيكة كان له تأثير واضح عليها.

كانت ماري قد ذهبت لتحضر أختها منذ نصف ساعة. وستعود الآن في أي لحظة. ولم يكن تاغارت قد خطط ليكون هناك. فقد حان وقت رحيله على كل حال. لماذا يثير أحزانه لكي يرى ماري لمرة واحدة؟ حتى ولو كانت تلك المرة هي آخر فرصة له، وستعني أنه سيراها في أسعد أوقاتها.

لم يستطع أن يبقى لأن هذا سيكون صعباً عليه. فهو لن يتمكن من أن يأخذها بين ذراعيه ويعانقها بحب ويهمس لها كم هي جميلة.

لم يعلم ما إذا كان عدم قيامه بشيء، صواب أو خطأ أو غباء أو حكمة. كل ما يعلمه أنه وفى بوعده لصديق صباه، بونر ويترينج. لقد صدقت ميزويتي أنه هو حفيدها بونر وكانت سعيدة باحتفالها بعيد ميلادها الخامس والسبعين وزيارة حفيدها الحلوة لها. لقد انتهت اللعبة ونجح هو.

وتمتم ضاحكاً بمرارة: نعم هذا صحيح. وهبط السلم بحقيبته والخسارة توتر حلقه.

فتح الباب الأمامي فأجفل عندما تهالكت ماري متشبثة باكية وركبتاها تصطكان ثم ابتدأت تنحدر إلى الأرض. ألقى بحقيبته ثم رفعها بذراعيه: «ما الذي... حدث؟».

ثم حملها إلى غرفة الجلوس.

دفعت شعرها عن جبينها فرأى تاغارت أنها كانت تبكي منذ فترة. كان خداها متوهجين وعيناها حمراوين ووجهها مبتلاً بالدموع.

- لقد رحلت... رحلا.

وعادت إلى البكاء واضعة وجهها على كتفه: «لقد... لقد ذهبت المقطورة».

وشعر بقبضتيها حول ياقة قميصه. وعادت تقول بصوت متهدج: «لا أحد. لا أحد يعرف أين هما. لقد رحلا مساء الأربعاء».

- هل رحل جو؟

سألها غير مصدق. وجلس على الأريكة بجانبها. وعلا صريرها تحت ثقلهما.

أومأت وهي تشهق بالبكاء: «وكذلك بيكا... وصاحبته. لقد ذهب كل شيء».

ونظرت إلى وجه تاغارت وملامحها من الحزن ما جعله يشعر بدافع يدفعه إلى أن يعلق جو لكنز من أذنيه.

فتحت قبضتيها ثم أحاطت عنقه بذراعيها ومضت تبكي على صدره: «أصبحوا الآن خارج ولاية كولورادو... ثم... ثم إننا محاطون بسبع ولايات! بإمكانهما الآن أن يكونا في أي مكان تقريباً».

وصرخت: «كيف يمكن لجو أن يفعل ذلك؟ أسبوعان... أسبوعان هما فترة قصيرة للغاية... كما أن أمنا تريدنا أن نكون معاً! لقد قال القاضي...».

وعضت شفتيها وكبحت شهقة.

دست وجهها في عنقه وهي ترتجف خوفاً وحزناً لفقدانها أختها، واختنقت شهقاتها في قميصه.

احتضنها تاغارت ومرّ بيده على شعرها. كم مرة أراد أن يحتضنها، ولكن ليس بهذا الشكل. ليس وهي محطمة القلب.

صرخت: «ليس... ليس مفروضاً فيه أن يغادر المدينة دون أن يخبرني إلى أين هو ذاهب. لا يمكنه أن يأخذ بيكا بعيداً. ماذا... ماذا لو لم أرها أبداً بعد الآن؟».

وانهارت كلياً. كان نواحها من الإرتفاع بحيث سبب له ألماً فظيعاً.

صرف تاغارت بأسنانه وهو يشتم بصمت. تباً لك، يا جو لكنز! لن تفلت من العقاب، أيها النغل الجبان. ربما لن أستطيع قط أن أحب ماري. لكنني محام جيد ولديّ معارف كثيرة كما أن لدي تحري خاص يمكنه أن يعثر على رقاقة الثلج في جهنم قبل أن تذوب. إذا كانت بيكا على وجه هذه الأرض، سيعثر عليها!

نظر إلى الساعة. التاسعة والنصف. عليه أن يذهب، وليس هذا فقط، بل عليه أن يذهب بصفته بونر ويترينج، وذلك الرجل الذي لا يملك الكثير من

المعرفة والإهتمام بالأمور القانونية، إلا في حالة المحافظة على مصلحة له. وهكذا، بصفته بونر ويترينج، قال: «استدعي الشرطة يا ماري».

كان يعلم أن ذلك لن ينفعها كثيراً. فالبنت مع أبيها، ولذلك لن تتخذ إجراءات مثل حواجز الطرقات التي تضعها الشرطة للبحث عن هارب، أو ما أشبه، ولكن يجب الإبلاغ على كل حال. لأن أي قضية قد ترفعها، مستقبلاً، ضد والد بيكا، ستقوى بإثبات أنه سبق له انتهاك أوامر المحكمة.

وضع يده على رأسها من الخلف وأخذ يمرّرها على شعرها بحب وبطء. رائحة عطر الأزهار فيه ذكرته بمروج الريف في المرتفعات. ملأ رئتيه بهذه الرائحة فتملكه الضعف. وبالرغم عنه، وضع وجنته على خدها. ولم يستطع أن يمنع نفسه من وضع قبلة وداع سريعة فوق صدغها، وهو يتمتم: «جو مخطىء، إشكيه للشرطة».

واستمر بملامسة شعرها ووضع خصلاته خلف أذنيها: «عليّ أن أذهب، يا ماري».

همس بذلك بصوت أجش عامر بالأسف. ثم أرغم نفسه على رفعها من كتفيها لكي تجلس بشكل سويّ. شعر بارتجافها فأخذ نفساً عميقاً قبل أن تتلاقى أعينهما.

مسحت خديها من آثار الدموع وقالت بصوت متهدج: «طبعاً، آسفة... كنت فقط...».

ابتلعت ريقها ودفعت شعرها عن وجهها، حوّلت عينيها عن عينيه وأخذت نفساً آخر تستعيد بذلك هدوءها. تملكه شعور بأنها مرتبكة لأنها سمحت لنفسها بأن يواسيها. وقالت: «سأستدعي الشرطة حالاً».

وعندما ترنحت ومدّت يدها تستند إلى الكرسي. وقف وأمسك بذراعها يساعدها على حفظ توازنها: «هل أنت بخير؟».

نزعت ذراعها من قبضته، وما زالت محوّلة عينيها عنه: «أنا على أتم مايرام،

وآسفة لأنني أثقلت عليك بمشاكلي».

أراد أن يخبرها بأن مجيئها إليه بمشاكلها لا يثقل عليه أبداً، لكنه أدرك أنه لن يستطيع، فقال: «لا تقلقي لهذا الشأن، أردت...».

- الأفضل أن تذهب.

قاطعته بذلك وهي تسرع إلى حيث الهاتف على طاولة بقرب الباب.

- هذا صحيح... طائرتي...

تمتم بذلك لنفسه أكثر منه لماري. لقد نبذته من ذهنها طالما أدارت له ظهرها. نظر إليها عابساً. كانت ترتجف حتى أنه شك بقدرتها على طلب الرقم. تلهّف إلى أن يخبرها بأنه سيقوم بكل ما يستطيعه لكي يعيد إليها بيكا. لكن وعده لبونر أسكته.

وقف كأحمق أضناه الحب ولوّعه، وأفكاره بالغة المرارة. أراد أن يقول شيئاً... يفعل شيئاً. أي شيء يخفف من مخاوفها: «ماري، أنا واثق من أن الشرطة سوف...».

فقاطعته متحدثة عبر الهاتف: «مرحباً، حضرة الشريف بلات؟ هنا ماري أومارا».

هيا، فليذهب! بقاؤه لن ينفع شيئاً. وعليه أن يعثر على بنت صغيرة، وذلك لأجل امرأة لن يحصل عليها أبداً.

٩ ـــ وعادت الشمس

بعد أن قدمت ماري شكوى ضد جو لكنز الذي هرب بشكل غير شرعي في عتمة الليل مع بيكا، أعادت السماعة مكانها. رغم أن الشريف أبدى اهتماماً وتعاطفاً، إلا أنه لم يكن واثقاً تماماً. إذ يبدو أن القانون لا يلاحق أباً هرب سراً مع ابنته، وإن يكن الرجل سيء الأخلاق.

استدارت لتخبر بونر بالخبر السيء، وإذا به قد اختفى. قفزت نحو الباب الأمامي فرأته مغلقاً وحقيبته غير موجودة، هي أيضاً. فغمرتها موجة من الحزن.

لقد رحل بونر ويتيرينغ.

حسناً، ألم تطلب إليه أن يذهب؟ فلماذا تظنه لن يفعل؟ ولماذا، آه، نعم، لماذا تشعر بعده بالهجران؟ ولماذا تشعر برحيله مشتتاً لذهنها ونفسها بقدر ما فعل فقدها بيكا؟ وقالت تؤنب نفسها باكية: ماري أومارا، يا لك من فتاة ميؤوس منها!

وهبطت إلى الأرض وهي تجاهد لتواجه مستقبلاً كئيباً مظلماً. وأعمتها الدموع. ثم أخذت تنوح بصوت مرتفع.

* * *

أخذت تؤدي واجباتها اليومية وكأن شيئاً لم يكن، لكن العذاب كان ينهش أعماقها، وكل يوم يمضي دون خبر عن بيكا كانت معنوياتها تزداد هبوطاً.

وبعد ثمانية وعشرين يوماً من اختفاء جو مع بيكا، بزغ النهار على عالم ماري المظلم. فقد تلقت اتصالاً من سلطة ولاية «يوتاه». تحريات خاصة وجدت بيكا في مستشفى صغير في الولاية. وكانت قد أدخلت منذ ليلتين لكسر في

الذراع. التحري الخاص أخبر السلطة عن مكان بيكا، فتسلمت هذه المسؤولية. أما من يكون رجل التحري الخاص هذا، ومن الذي كلفه بالبحث عن بيكا، فهذا ما لم تعرفه ماري. كانت متلهفة إلى شكر هذا الرجل، لكنه اختفى بنفس السرعة والسرية التي ظهر بها.

وعلمت ماري أن جو تعرّض لحادث وهو يقود سيارته ثملاً. لقد هشم شاحته لكن لا أحد ممن فيها قد أصيب، لحسن الحظ.

عانى جو وصديقته من إصابات خفيفة. لكنهما بخير. ودخل جو السجن نظراً لتاريخه الحافل في معاطاة الكحول أثناء قيادة السيارة.

وقبل أن تعرف ماري بما كان يحدث، إذا بها ترى بيكا تعود إليها فجأة، مؤقتاً على الأقل. ثم، إذا بمعجزة أخرى لم تستطع تفسيرها أو فهمها، تحدث لها عندما اتصل بها أحسن محام في كولورادو بشكل مفاجىء، قائلاً إن بإمكانه أن يجعلها تأخذ أختها غير الشقيقة، تحت وصايتها بشكل دائم، كونها قريبة بيكا الوحيدة، وقد يدخل الأب السجن حسب قول المحامي. طمأنته لها أنعشت أملها، لكنها اعترفت بأن ليس بإمكانها أن تدفع له أجره لكنه قال ببساطة:

ـ هناك من اهتم بهذا الأمر.

في أواخر تشرين الأول، جاء اليوم السعيد عندما أصدر القاضي الحكم بأن تستلم ماري أومارا الوصاية على بيكا لكنز بصفة دائمة. غمرت ماري السعادة وعرفان الجميل، واندفعت دون وعي تحتضن المحامي. ودهشت وهي تكتشف أن هذا المحامي المهذب القويّ النفوذ لديه قدرة بالغة على أن يحمرّ خجلاً، كما أن لديه نفس القدرة، لسوء الحظ، على عدم التزحزح عن صمته، إزاء موضوع من هو الذي كلّفه بالقضية ودفع له أجره وتكاليف كل ذلك.

اشتبهت ماري، في أن تكون ميز ويتي هي صاحبة تلك المعجزات. لا بد من أنها هي من استخدم التحري والمحامي. ذلك أنه لا أحد في العالم كان سيفعل كل ذلك لأجلها.

لكن ميزويتي بقيت مصرّة على أنها لم تفعل أياً من ذلك. وقررت ماري أن تكشف الحقيقة. هي تدين لميزويتي بما فعلته هذه لأجلها وعليها أن تشكر مخدومتها اللطيفة الكريمة. ولكن، من ناحية أخرى، كيف يستطيع الإنسان أن يشكر شخصاً لأنه منحها كل ما تريده في العالم؟

وهمس في أعماقها صوت ماكر خفي: «تقريباً كل شيء، أليس كذلك؟ ماذا عن بونر ويتيرينغ؟».

آه، كفى... أخذت تتمتم وهي تجمع أطباق الغداء عن مائدة ميز ويتي الصغيرة. ونظرت إلى ساعتها... لن تخرج بيكا من المدرسة قبل ساعة.

عندما عادت إلى عملها المعتاد، ملأ وجه بونر خيالها، فخفق قلبها، وتمتمت تؤنب نفسها بأن تنسى هذا الرجل مهما كان مدى انجذابها إليه... فهي في النهاية، ستشفى من حبه... وإذا لم يحدث ذلك، لا بد أنهم، ذات يوم، سيخترعون دواء شافياً له، كما اخترعوا لزيادة الكولسترول أو ضغط الدم المرتفع.

ـ هل كنت تقولين شيئاً، يا عزيزتي؟

استدارت ماري بسرعة. أتراها قالت ذلك بصوت مرتفع؟: «آه، لا».

كانت ميز ويتي جالسة على كرسيها بجانب النافذة وفي يدها رواية تقرأها. وكان الثلج يتساقط بشكل جميل ليكلّل أشجار الصنوبر خلف المنزل بالبياض. ابتسمت المرأة العجوز لماري وعلى ملامحها الفضول: «ظننتني سمعتك... هل حان وقت قياس ضغط دمي؟»

هزت ماري رأسها شاعرة بالغباء: «لا. كنت أتحدث إلى نفسي».

ضحكت ميزويتي بمرح: «تحدثين نفسك عن ضغط الدم؟ هل كنت تتحدثين مع نفسك عن ضغطك أم ضغطي؟»

ثم قطبت ميزويتي حاجبيها: «عندما كنت في عمرك، لم أكن أبداً أفكر في ضغط دمي. تعالي اقتربي مني».

أشارت ماري إلى صينية الأطباق القذرة: «كنت سآخذ هذه إلى المطبخ».

ـ انسي هذه لحظة، وتعالي إلى يا طفلتي. يبدو عليك الإجهاد النفسي.

كانت ماري قد حاولت جهدها لتخفي افتتانها غير المنطقي ببونر. لكنها أدركت أن ميز ويتي أذكى من أن تُخدع، ومع ذلك لم تشأ أن تتحدث عن ذلك. لكن الهجوم خير وسائل الدفاع، كما يقال، وهكذا أقسمت على الحصول على الحقيقة، فترغم ميز ويتي على الاعتراف بكرمها غير العادي هذا.

تقدمت من مخدومتها: «ميز ويتي. علي أن أعلم الحقيقة. أنت كلّفت ذلك المحامي. أليس كذلك؟ أنت تعلمين أنني أخبرتك بأنني لا أريد منك إحساناً وأنني أريد أن أتصرف بطريقتي الخاصة، ولكن... العثور على بيكا لأجلي ومساعدتي على الحصول على الوصاية. حسناً هذا رائع جداً. إذا كنت أنت الفاعلة، أريد أن أدفع لك مقابل ذلك بطريقة ما. إذا كنت لا تريدين نقوداً، دعيني إذن أفعل شيئاً آخر. أرجوك... أنا».

فقاطعتها المرأة العجوز برقة: «إجلسي، يا عزيزتي أريد أن أتحدث إليك».

فوجئت ماري بهذا الطلب الجاد من ميزويتي. ذلك أن من النادر أن تتخلى مخدومتها عن ابتسامتها. فجلست: «نعم؟ ماذا هناك؟».

خفضت ميز ويتي بصرها إلى كتابها وأخرجت من بين صفحاتها صورة ناولتها إلى ماري. كانت صورة بونر ورجل آخر. نظرت إلى الصورة وخفق قلبها بجنون. كان الرجلان يبتسمان. ذراع الواحد منهما حول كتفي الآخر، كأخوين أو صديقين حميمين: «ما هذا؟ إنه بونر».

ورفعت نظرها إلى ميزويتي: «لم أكن أعلم أن لديك صورة حديثة له».

بدت ابتسامة ميز ويتي كئيبة أكثر منها سعيدة: «نعم، إنها منذ عدة سنوات، أنا واثقة من أن بونر لا يتذكر أنه أرسلها إلي. كان ذلك قبل حضورك للعمل عندي بشهر تقريباً. كنت في المستشفى وقد اختلطت الصورة برسائل وبطاقات أخرى كنت قد تلقيتها حينذاك، وقد عثرت عليها مصادفة في الربيع الماضي،

منذ ذلك الحين وضعتها في درج الطاولة بجانب سريري. إنها صورة حلوة له، أليس كذلك؟».

أومأت ماري وقد التوى قلبها. كان من الصعب عليها نسيان بونر دون صورة، فكيف وصورته أمامها؟ هاتان العينان المغناطيسيتان والإبتسامة المدمّرة. وأعادت الصورة لها خائفة من أن تنفجر باكية إذا استمرت تنظر إليه: «نعم، إنها حلوة جداً».

أخذت ميز ويتي الصورة وراحت تنظر إليها بمحبة: «الرجل الآخر هو تاغارت لنكستر. لقد نشآ معاً. إنهما كأخوين».

– يبدوان متشابهين بشكل ما.

– هذا صحيح. إنهما شابان وسيمان.

وتنهدت بأسف: «أنا أحب كثيراً حفيدي، يا ماري. أبوه، وهو وحيدي، نشأ رجلاً جاداً للغاية وتزوج امرأة باردة المشاعر وكانا أنانيين، قاسيين على ولدهما بونر لأنه كان عقبة في سبيل مسرّاتهما. مات زوجي الحبيب عندما كان بونر في السابعة فأمضيت سنوات في الحداد عليه وهذا لم ينفع الطفل المسكين حين كان في أشدّ الحاجة إليّ. وأنا أحمد الله لأنه وجد صديقاً مثل تاغارت. إنه محامي بونر. ها قد عرفت».

– آه؟ فهمت.

وتذكرت ماري أنها سمعت هذا الإسم.

– كان تاغارت لنكستر دوماً صديقاً مخلصاً. وكان بونر بحاجة إلى ثبات في حياته.

ونظرت إليها باسمة: «أنا أعرف أن لدى حفيدي أخطاء، لكنه، مهما كانت صفاته، طيب القلب».

ونظرت مرة أخرى إلى الصورة والكآبة في ملامحها، ومرّت بإصبعها على الصورة لآخر مرة قبل أن تعود فتضعها مكانها في الكتاب.

وعندما عادت تنظر إلى ماري إبتسمت لها بحنان: «أنا أحبك وكأنك حفيدتي. ورغم أنه يسعدني أن أدفع لك نفقات دراستك، أو أي شيء آخر قد تحتاجينه، فقد احترمت رغبتك في أن تنفقي على نفسك بنفسك».

ومدّت يدها تغطي بها يد ماري: «وعليك أن تصدقيني حين أقول إنني لم أدفع لتحرٍّ ولا لمحامٍ».

وضغطت على يد ماري بعطف: «لدى حفيدي أخطاء كثيرة ولكن لديه أصدقاء بالغي القوة والنفوذ».

- أتظنين أن بونر فعل ذلك؟

- لست واثقة. من يمكن أن يكون غيره؟

فقطبت ماري جبينها: «لا أستطيع تصديق ذلك. ولكن أنت ترسلين إليه نقوداً. فإذا كان يدفع نفقات كل ذلك، فهذا يعني أن النقود منك أنت».

- كل ما أستطيع قوله هو أن بونر لم يطلب مني نقوداً منذ أخذ جو بيكا ورحل بها.

- حسناً، أريد أن أعرف بأي شكل كان.

- لماذا لا تسألينه؟

كانت ماري قد خفضت بصرها وشبكت يديها معاً. وعندما سمعت سؤال ميز ويتي، رفعت نظرها إليها: «أتعنين أن أتصل ببونر؟»

ابتسمت المرأة بعطف: «منذ لحظة كنت تريدين أن تفعلي أي شيء لأجلي. والآن، تشعرين بالذعر لفكرة رفع سماعة الهاتف».

احمر وجه ماري: «طبعاً... الحق معك. ما أغباني».

تنحنحت، محدثة نفسها بأنها امرأة ناضجة، يمكنها أن تفعل ذلك. يمكنها أن تحدث بونر هاتفياً دون أن تذهب نفسها شتاتاً.

- سأتصل به، الآن.

نهضت وسارت إلى منضدة ميز وتي الجانبية حيث كان رقم هاتف بونر

مسجلاً، وهي تحدث نفسها بأن تهدأ وإلا سيغمى عليها قبل أن تبدأ المكالمة.

حاولت أن تتنفس ببطء وعمق عندما ابتدأ رنين الهاتف، وإذا بالمجيب الآلي يردّ عليها طالباً منها أن تترك رسالة. بللت شفتيها متوترة. ماذا عليها أن تقول؟ وأي رسالة عليها أن تتركها! وقبل أن تمنح نفسها وقتاً للتفكير، وضعت السماعة مكانها.

- هل غيرت رأيك؟

هزت ماري رأسها غاضبة من نفسها لجبنها هذا: «ليس هناك».

هذا كل ما تحتوي عليه من نضوج الراشدين. لقد خافت وارتبط لسانها عن ترك رسالة تقول فيها: (إتصل بي... علينا أن نتحدث). أخذ النبض يخفق في أذنيها وتوهج وجهها خزياً. لم تستطع مواجهة ميز ويتي. وأسرعت إلى المنضدة تحمل صينية الأواني: «سوف.. سأحاول مرة أخرى... فيما بعد».

ثم اندفعت خارجة.

حاولت ماري، وحاولت حقاً! بقيت تتصل وتتصل ثلاثة أيام، فكان يجيبها ذلك الصوت المعدني الرتيب طالباً منها الشيء نفسه... أن تترك رسالة. وكان جوابها الوحيد تأتأة، ثم.. لا شيء.

ودفعها اليأس أخيراً إلى أن تتصل بمكتب محامي بونر. وأجابتها السكرتيرة أن السيد لنكستر في المحكمة. وعندما سألتها ماري إن كانت تعلم ما إذا كان بونر خارج المدينة، ترددت السكرتيرة. لم يكن لديها الحرية في إعطاء معلومات عن الموكلين. وبسبب تردد السكرتيرة في الإجابة على سؤال عادي، تملك ماري شعور غريب وكأن المرأة تعلم مكان بونر لكن الخبر لم يكن ساراً.

هل بونر في مشكلة؟

شعرت بصداع يتملكها. كانت من التعب والغضب من نفسها والاكتئاب بحيث لم تكن تحتمل أن تكتشف أي طفلة عاجزة هي. إذا كان بونر فعل حقاً كل هذه الأمور لأجلها، أقل ما يجب عليها عمله هو أن تستجمع شجاعتها

لتشكره! ولكن كيف يمكن لأيّ شخص أن يشكر شخصاً آخر هاتفياً لأجل هدية تتضمن كل هذه الأمور الهامة والرعاية؟

ربما عدم قدرتها على الحديث في ذلك الجهاز هي طريقة جبانة للهرب..

ماذا لو وهنت قواها لسماعها صوته؟ ماذا لو شعرت بانجذاب جنوني نحوه؟ لو كان هو الذي يتر عودة بيكا إليها، واستخدم ذلك المحامي، ألا يستحق أن تشكره وجهاً لوجه؟

مهما كانت صعوبة رؤيته مرة أخرى، إلا أنه يستحق أن تخبره بذلك شخصياً. وإذا كان غارقاً في مشكلة، وحدثها إحساسها بأنه كذلك، يمكنها أن تساعده على الأقل في تقديم عون أخلاقي. قد يكون فتى عابثاً وزير نساء أو متآمراً، ولكن إذا كان هو حقاً من أعاد إليها أختها، فهي تدين له بهذا وبأكثر منه.

بعد وصولها إلى هذه النتيجة، قرعت باب ميزويتي.

- أدخلي.

وفي الداخل، وقفت ماري منتصبة تواجه مخدومتها التي كانت جالسة إلى مكتبها: «قررت أن أذهب إلى بوسطن، يا ميز ويتي لأتحدث إلى بونر شخصياً».

أشرق وجه المرأة: «فكرة رائعة، يا ابنتي».

- بعد أن فكرت في ما قلته لي، أحسست في أعماقي بأن إعادة بيكا إليّ هو من عمل بونر وعدة كلمات عبر الهاتف ليست كافية. لأن ما فعله هو أكثر من رائع وأكثر من هام...

فقاطعتها ميزويتي: «أرجو ألا يكون لديك مانع يا ماري».

وفتحت درجاً أخرجت منه مغلفاً ناولتها إياه: «اشتريت لك تذكرة سفر إلى بوسطن بالطائرة».

* * *

في عصر يوم جمعة بالغ البرودة، استقلت ماري سيارة أجرة من مطار بوسطن إلى المبنى حيث يسكن بونر. وفي الداخل كان حارس الأمن على مكتبه

أكثر تجاوباً من سكرتيرة تاغارت لنكستر. كان مغتبطاً تقريباً وهو يخبرها بأن بونر ويتيرينغ قد أدين بتهمة التجارة من الباطن ومنذ ذلك الحين ألغي عقد الإيجار لأنه كان في السجن. وهو الآن، في المحكمة هذه اللحظة ليسمع الحكم عليه.

تملك ماري الذعر مما سمعت. ما هي التجارة الباطنية بحق السماء؟ وما هو نوع الحكم الذي تتضمنه؟

بعد أن أقنعت رجل الأمن بأن يخبىء حقيبتها، استقلت سيارة أجرة ذهبت بها إلى المحكمة الفيدرالية. لم يكن لديها فكرة عما ستفعله عندما تصل إلى هناك. كانت تريد أن ترى بونر، آملة أن تجد فرصة تتحدث فيها إليه.

ولكن، مدان؟ هذا يعني السجن! إنها تعلم أن لديه أخطاء كثيرة، ولكن جنائية؟ ذلك الرجل الذي عامل ميز ويتي بكل ذلك الاحترام، والإحساس. الرجل الذي كان لطيفاً رقيقاً حتى في رفضه لباولين، الرجل الذي تكلف كثيراً ليستعيد بيكا؟ هل يمكن لهذا الرجل أن يكون مداناً بجناية؟ لم يبد هذا ممكناً.

عندما اقتربت سيارة ماري من المحكمة حدقت إليها برهبة. فقد كان هذا المبنى مهيباً يكاد يفوق بلدتها مساحة.

قبل أن تدخل، سألت موظفاً بملابس رسمية عن المكان الذي يستمع فيه بونر ويتيرينغ إلى الحكم. فأعطاها الإرشادات. وبخوف لا تدري سببه، أسرعت بصعود السلم المتعرج إلى حيث الصالة الرئيسية. غامت الرؤية أمامها فأخذت تغالب دموعها. لماذا... نعم لماذا كان عليها أن تقع في غرام رجل محكوم عليه بالسجن؟ تعثرت وكادت تسقط، لكنها تمالكت نفسها. ولماذا كان عليها أن تختار هذه اللحظة لتواجه الحقيقة؟ وهي أنها تحب بونر ويتيرينغ؟ لم يكن ذلك اكتشافاً سعيداً! والآن، بعد أن واجهت ذلك، ماذا ستفعل؟

أخذت تركض، وكان وقع خطواتها يصدح على الأرض الرخامية لتلك الصالة البالغة الإتساع. حولها كان الناس يتمشون أو يتناولون غداءهم على الكراسي الخشبية المستطيلة المصفوفة على طول الممرات. وبدا الرجال والنساء

الذين كانت تمرّ بهم مثلها توتراً وجداً.

عندما وصلت إلى المحكمة حيث جلسة بونر، شعرت بغصة في حلقها. لكنها استجمعت شجاعتها ودفعت الباب. خفق قلبها بشدة. ووارت نفسها قدر الإمكان في آخر هذه الغرفة. تفحصت المكان، بدا وكأن المحاكمة جارية، ولكن لم يكن هناك محلّفون، أو شهود. كان رجل يقف أمام القاضي وهو يتكلم بحرارة، وصوته يرن في الغرفة. عميقاً قوياً.

حدّقت ماري إليه. كان طويلاً يرتدي بذلة كحلية غالية الثمن. ورغم أن ظهره كان إليها، شعرت بوخزة إدراك أجفلت لها. سمعت صوت الرجل لكنها لم تسمع الكلمات، لكن طريقته في النطق اخترقت وعيها فأخذت تحدّق مذهولة.

إنه صوت بونر!

- يا سيادة القاضي، موكلي، بونر ويتيرينغ، أمضى وقتاً طويلاً حتى فهم فداحة تصرفاته . . .

نظرت ماري إلى المتكلم وهو يلتفت إلى رجل جالس، مشيراً إليه. استمر في الكلام بصوت مليء بالإدانة، لكن ماري لم تستطع أن تفهم الكلمات. كان ذهنها يسيطر عليه الارتباك. الرجل الذي عرفته باسم بونر ويتيرينغ كان يتكلم عن بونر ويتيرينغ، وهو يشير إلى رجل آخر بصفته بونر ويتيرينغ.

كان بقربها شاب مستغرق في الاصغاء، فتحولت نحوه وهمست: «من هو ذلك الرجل الذي يتكلم؟».

ألقى الفتى عليها نظرة سريعة ثم عاد بانتباهه إلى المتكلم: «ذلك تاغارت لنكستر».

نظرت ماري إلى الفتى بذهول. أن ترى العالم وقد عمّته الفوضى، شيء، وأن تكتشف أنه أصبح مفزعاً مقلقاً للغاية، هو شيء آخر. ورفضت أن تصدق هذا الكلام. وعندما استطاعت أن تتكلم، سألته: «أنت تعني. . . بونر

ويتيرينغ، أليس كذلك؟».

عاد الفتى يحملق فيها: «ويتيرينغ هو المتهم، يا سيدتي، والآن هل لك أن تسكتي من فضلك؟ أنا أتعلم الحقوق لأكون محامياً جنائياً. ولنكستر هو أفضل المحامين».

لنكستر أفضل المحامين!

دارت هذه الكلمات في ذهن ماري عدة دقائق وهي تحدق في الرجل المتكلم الذي كان يخاطب القاضي ببلاغة واضحة، وكذلك إلى سيدة بيضاء الشعر بدا عليها الإصغاء التام. نظرت ماري حولها فلاحظت أن السكون التام يهيمن على المحكمة. . . الجميع كانوا مأخوذين مسلوبي اللب. المأمور، النائب العام، والمتهم بونر ويتيرينغ. كاتب المحكمة وحده كان يتحرك وأصابعه تطير على الآلة الكاتبة، وكل من عداه كان مستغرقاً في كلمات تاغارت لنكستر.

أثناء كلامه، تقدم خطوات من القاضي، وبعد لحظة استدار يواجه الحضور وهو يشير مرة أخرى إلى موكله. وعندما عاد إلى منضدته رفع بصره يشمل الجمهور بنظراته. في اللحظة التي تقابلت فيها أعينهما، خفق قلب ماري.

أدركت اللحظة التي عرفها فيها، لأنه توقف في منتصف الجملة. وللحظة تملك تاغارت لنكستر الذهول التام. شعرت بذلك أكثر مما رأته، لأنه على الفور، أنهى جملته وتقدم من منضدة الدفاع حيث تناول رزمة من الأوراق ثم واجه القاضي متابعاً كلامه.

شعرت ماري بالاضطراب وقد مزقتها المشاعر المختلطة. بونر ويتيرينغ لم يذهب إلى ويتيرينغ على الإطلاق؟ بل ذلك كان محاميه تاغارت لنكستر!.

لم يكن تاغارت لنكستر فتى عابثاً أو طائشاً. بل كان يعيش حياة وضيعة يبعد فيها موكليه الأغنياء المدللين عن المشاكل بلسانه الذهبي ويبرئهم من جرائمهم. والأسوأ من ذلك، بالنسبة إلى ماري، أنه إقترف جريمة احتيال

جسيمة في حق ميز ويتي!

أم أن هذا غير صحيح؟ وتذكرت الصورة التي أرتها إياها مخدومتها.

إذن، لا بد من أن ميز ويتي كانت تعلم منذ البداية.

أغمضت ماري عينيها بشدة ثم هزت رأسها لا تعرف بما عليها أن تفكر أو تشعر. كانت من التشوش البالغ والإرتباك والكدر بحيث لم تعرف من الذي عليها أن تغضب منه، أو كيف تغضب. شعرت بأنها تختنق. وبدا جو الغرفة حاراً فجأة. صعب عليها التنفس وأصبحت الرؤية أمامها مزدوجة.

خرجت من غرفة المحكمة وهي في حالة ذهول وعذاب، ثم نزلت إلى الصالة دون أن ترى شيئاً، ودون وعي منها كانت قد أصبحت في الشارع.

شدت حولها سترتها الصوفية ثم سارت على غير هدى. لم تعرف كم جالت في الشوارع قبل أن تقف أمام مقهى. وإذ كانت ترتجف من التعاسة والبرد، دخلته. كان عليها أن تفكر... تنظم أفكارها. لقد جاءت إلى بوسطن لتشكر بونر لما فعله لأجلها، هي وبيكا. ولكن ماذا الآن؟ من عليها أن تشكر ومن عليها أن تخنق؟

* * *

أمضى تاغارت وقتاً صعباً في التركيز على الدفاع عن بونر. منذ اللحظة التي رأى فيها ماري، تحول ذهنه إلى رماد. إنها هنا، في بوسطن، في نفس الغرفة معه، لكنه لا يستطيع أن يأخذها بين ذراعيه. لا يستطيع أن يضمها إليه بالطريقة التي كان يفعلها في... أحلامه أثناء الأشهر الثلاثة الأبدية الماضية. كان يعيش في انتظار مجيء الليل والهرب الذي يمثله. لأن تلك الساعات كانت الوحيدة التي كان يشعر فيها بالأمل.

حاول التركيز إلى أن ينهي عمله أولاً. إنه يحب بونر. وحتى ولو كانت هذه أغنية الموت بصفته محاميه، إلا أنه ما زال مديناً له، ولن يتخلى عنه.

كان تاغارت قد أعاد تقييم حياته منذ ترك ويتيرينغ في ولاية كولورادو،

وقرر أن ينتقل إلى غرب أميركا حيث يفتح مكتب محاماة صغير في المنطقة الجبلية فيدع حياة الريف البسيطة تمحو قذارة حياة المدينة من نفسه. أراد أن يساعد الناس البسطاء على حل مشاكلهم، أن يدافع عن المصلحة العامة. إنه يريد أن يشعر بأنه أدى واجبه وأصبح نظيفاً.

ومحاكمة اليوم، هي نهاية مكانته ونفوذه وعمله في بوسطن وكذلك نهاية علاقته العملية ببونر بصفة محام، هذا إذا لم تكن نهاية صداقتهما. إنه ما زال يحب بونر كأخ له، لكنه يعلم أنه لن يستطيع قضاء بقية حياته ممسكاً بيد بونر. فهذا ليس من مصلحة أي منهما. تاغارت يريد حياة خاصة به، وعلى بونر أن يواجه الحياة وحده ويتعلم تحمّل مسؤولية أعماله.

مرّت الساعة الأخيرة وكأنها دهر. وعندما نظر تاغارت ليرى ماري مرة أخرى، لم تكن في قاعة المحكمة. أين تراها ذهبت؟ عليه أن يبحث عنها، أن يشم فيها عطر المروج في المرتفعات، أن ينظر في تلك العينين الضبابيتين اللتين شغلتا باله ليلاً نهاراً. كان يعلم أنها غاضبة لاكتشافها كذبه. لكنه اعتاد منها الكراهية.

وأخيراً انتهت الجلسة وتأخر قرار القاضي فترك تاغارت المحكمة بأسرع ما يستطيع، مصمماً على العثور على ماري. ودعا الله ألا تكون قد عادت إلى المطار لتأخذ أول طائرة مغادرة.

وإذا به يصطدم بها خارج باب قاعة المحكمة بالضبط، كانت وجنتاها متوهجتين وشعرها قد شعثته الريح. ويبدو أنها ذهبت إلى مكان ما، ثم قررت العودة. حمد الله على ذلك، حتى ولو كانت فقط لتصفعه على وجهه.

قال مبتسماً دون أن يستطيع منع ابتسامته: «ماري. كنت أبحث عنك...».

فقاطعته رافعة الرأس: «قل لي فقط من تكون بالضبط!».

مضت لحظة نسي فيها كل شيء ثم قال: «آه، حسناً».

وتلاشت ابتسامته وأوماً متفهماً: «بالنسبة إلى ذلك...».

- لا يهم ولا أدري لماذا سألتك، لأنني لا أريد أبداً أن أتكلم معك مرة أخرى.

تغيرت ملامح الغضب، وأجفلت قليلاً وكأنها شعرت بأنها ليست راضية تماماً عن قولها هذا:

- ولكن... ولكن، قبل أن أذهب، أريد أن أعلم من وكّل التحري والمحامي لكي يعيدا إليّ بيكا؟ هل هو بونر؟.

لوى الندم قلبه. ما زالت ماري تراه بغيضاً. هذه الحقيقة غمرته بالكآبة. لماذا يعترف بأنه وكّل التحري وكلّف لإعادة بيكا أفضل محام في المنطقة، كل ذلك لأجلها هي؟ آخر شيء يريده هو أن تشعر بأنها مدينة له مادياً أو معنوياً. فقال: «أنا محامي بونر وليس أبوه، ولا أعرف كل شيء يقوم به».

حدقت إليه مقطبة: «لا تراوغ. أظنك تعرف ما يفعله بونر أكثر مما يعرف هو».

سمع تاغارت صوتاً خلفه فأدرك أن باب قاعة المحكمة قد انفتح خلفه، وبعد لحظة سقطت ذراع حول كتفيه بقوة: «لا أصدق أنك أخرجتني من السجن، يا رجل! تلك الأشياء التي قلتها عني رائعة. كدت تجعل النائب العام يبكي. لقد أصبحت قديساً».

تأمل تاغارت صديقه: «لو كنت مكانك لما وصلت بتفكيري إلى هذا الحد، فأنت لست حراً تماماً. لديك خمس سنوات تحت المراقبة».

- حسناً، إنه ليس سجناً.

ونظر بونر إلى ماري مقيّماً. ورأى تاغارت ملامحه تتحول من الدعابة إلى المكر: «آه، آه... من هذه؟».

نظر تاغارت إلى ماري التي كانت تتأمل بونر بفضول. وشعر أنها أدركت أنها تنظر أخيراً إلى حفيد ميز ويتي فقال: «ماري أومارا، أقدم إليك بونر ويتيرينغ سيء الذكر».

ضحك بونر وضرب كتف تاغارت، وعيناه على ماري: «إنه يعني «طيب الذكر». هذا المسكين لا يعرف أبداً كيف يتعامل مع الألفاظ».

ومد يده مصافحاً: «أنا مسرور حقاً بالتعرّف إليك يا ماري».

لم يدهش تاغارت لأن بونر لم يعرف الإسم. ونسي أن ماري هي التي هددته بأنه (قد يصبح خارج الوصية).

شعر تاغارت بأن ماري أدركت الشيء نفسه. انتقلت نظراتها لتقابل نظراته والسخط الملتهب، مع تألق عينيها بعرفان الجميل، كانا يؤلفان مزيجاً محيّراً. وفي تلك اللحظة، أدركت أن بونر ليس لديه فكرة عمّن تكون، وبالتالي لا يمكن أن يكون هو الذي ساعدها بالنسبة إلى بيكا. عادت بانتباهها إلى بونر وصافحته بأدب: «تشرفت يا سيد ويتيرينغ».

سحبت يدها من يده ونظرت إلى تاغارت: «إذن، عليّ حقاً أن أشكرك لأجل بيكا».

بدا عليها الألم وكأنها تتمنى لو أن ذلك ليس صحيحاً. وتملكه الضيق.

أزاح بونر ذراعه عن كتفي تاغارت واستدار يواجهه: «ما الذي يجري؟ ما الذي فعلته لهذه المرأة الجميلة لتغضب منا؟».

ضحك تاغارت ساخراً وهز رأسه لصديقه: «إنها ماري التي تعمل عند جدتك، والتي كانت تكتب لك الرسائل. هل تذكرها؟».

ودهش بونر ونظر إليها غير مصدق: «هي؟ هل هي تلك المحاربة ذات الأفكار الغريبة التي ذهبت أنت إليها لتتملقها؟».

فقال تاغارت: «هذا هو السبب الذي أردتني أن أذهب لأجله وليس السبب الذي جعلني أذهب وهي الآن تكرهنا، ولسبب وجيه».

ومد يده لصديقه: «حظاً سعيداً، يا بونر. فيمكنك أن تغيّر حياتك».

صافحه بونر لكنه قال مقطباً: «أنت غير جاد بالنسبة إلى انتهاء علاقتك بي كمحام؟ ماذا سأفعل من دونك يا رجل؟

وأمال رأسه ينظر إلى ماري: «عزيزتي، أظن أنك أنت السبب في أن تاغارت يسبب لي كل هذا الحزن».

نظرت إلى عينيه المتهمتين فاضطربت: «ماذا؟».

فأشار إلى تاغارت: «تاغ» سيترك بوسطن والأموال الكثيرة التي ينتجها مكتبه، ليتنقل إلى الغرب لكي يفتح مكتب محاماة بسيطاً في الجبال، لا ينتج شيئاً، وهذا أكثر الأشياء جنوناً. يقول إنه يريد أن يختص بقضايا الأطفال مجاناً، أو مثل هذا الكلام الفارغ، بينما يتركني هنا أرعى نفسي بنفسي».

شعر تاغارت بموجة من العطف على صديقه فمنحه ابتسامة مختصرة: «لا، هذا غير صحيح. أنت رجل طيب، يا بونر. ولديّ ثقة كبرى بك».

والتفت إلى ماري. جمودها العاطفي وملامحها المتقدة أنبأته بوضوح أنه لم يبق ما يقال بينهما. وشعر فجأة بإنهاك بالغ. رؤيته لها مرة أخرى، عالماً أن حبه لها دون أمل، أعاد فتح الجرح في داخله، وآه من النزيف. تلهّف إلى أن يحتضنها لكنه قاوم ذلك ودس يديه في جيبي بنطلونه.

وبإيماءة وداع جافة، تمتم يقول: «الوداع، يا آنسة أومارا».

دار رأس ماري من كل ما قاله بونر. ولم تستطع أن تستوعبه. عندما غادر تاغارت المكان بسرعة، وانتبهت هي إلى أنه رحل، اندفعت خلفه. ولكن لماذا لم تشأ أن تدعه يرحل؟ لماذا شعرت بحاجة مستعجلة إلى الإمساك به؟ ولماذا أمسكت بكم سترته؟: «ما الذي كان يعنيه عندما قال إنك ستترك مكتبك لتنتقل إلى الغرب؟ لا أظك ستفتح مكتباً للمحاماة في ولاية كولورادو، أليس كذلك؟»

- بلى سأفعل.

وتابع سيره بسرعة فاضطرت إلى الركض لتجاري خطواته.

خفق قلبها لوجوده بقربها، لكنها لم تستطع تجاهل حقيقة أنه تظاهر بأنه بونر ليخدع ميزويتي، حتى ولو كانت طوال الوقت تعلم أنه ليس حفيدها.

سألته: «كيف أمكنك أن توافق بونر على مشروعه ومسايرة ميز ويتي لأجل ميراثها؟».

وقف والتفت إليها: «كيف أمكنني..؟ لماذا تظنينني أخبرت بونر بأنني لن أستمر في أن أكون محاميه بعد الآن؟ ظننته يريد فقط أن يبهجها في أيامها الأخيرة، وعندما عرفت بأنه غشّني، وأرسلني إلى هناك فقط لكي أضمن مكانه في وصيتها، تركته. ولكن كان عليّ أولاً أن أساعده في قضية التجارة من الباطن هذه، وهكذا كان».

كان يتكلم بخشونة، لكنها رأت الصدق في عينيه. هاتان العينان اللتان طالما أشاعتا الإضطراب في كيانها للإخلاص الصادق الذي تفيضان به، فلا تصدقه هي. لقد أدركت الآن أنه كان مخلصاً في كل شيء ما عدا الاسم الذي انتحله.

- اتصلت بميزويتي وأخبرتها بالحقيقة... فقالت إنها كانت تعلم ذلك منذ البداية، لكنها فضّلت أن تسكت.

سألته باستغراب: «لماذا؟».

أوقف سيارة أجرة فصعدت ماري معه إليها غريزياً، فسألها بنفس الحيرة التي شعرت هي بها: «إلى أين تذهبين؟».

- لا أعرف... بعد.

قالت هذا مشتتة الذهن للغاية، شاعرة بالدوار: «هل قالت ميز ويتي لماذا قامت بتجاهل الأمر؟».

قطب جبينه ونظر بعيداً لحظة، ثم عاد فنظر إليها بإمعان: «قالت إنها تظننا أنا وأنت، مناسبان لبعضنا البعض».

شعرت بجرح في كرامتها فلم تستطع مواجهة نظراته. أترى أحست ميز ويتي بشعور ماري نحوه؟ منذ اللحظة الأولى التي قابلت فيها تاغارت لنكستر، حاولت أن تكرهه، لكنها فشلت بشكل تعيس. وطرفت بعينيها محاولة تمالك

شجاعتها. كان قريباً منها. إنها تشعر بحرارة جسده وتشعر بالسرور لمجرد وجودها بقربه، مهما كان ذلك السرور غبياً. وعادت تنظر إليه وهي تسأله على كره منها: «وماذا عن لي؟».

فسألها: «ماذا عنها؟».

- هل هي أيضاً تريد أن تنتقل إلى كولورادو؟

- أرجو ألّا تفعل.

قال هذا بصدق بالغ، فنظرت إليه بارتباك: «لكنها قالت لي بما معناه أنكما ستتزوجان».

- لن أتزوجها هي.

- لن تتزوجها هي؟

- لا.

همس بذلك وعيناه معلقتان بعينيها برقة بالغة: «قالت «لي» أشياء كثيرة... أشياء حمقاء».

تذكرت ما قالته لي لها من أشياء قاسية: «قالت «لي» إنك قلت لها إنني أحبك بشكل ساذج، وإنك تجد ذلك مسلياً».

بدا عليه الذهول: «ماذا؟»

تملكها فيض من المشاعر... أهو الشوق أم الأمل؟

- إذن فأنت لم تكن تهزأ مني؟

فهز رأسه: «لا، أبداً. أخبرت لي بأنك تكرهينني، سواء عرفتني بصفتي بونر ويتيرينغ أم تاغارت لنكستر المحامي الأحمق».

وسكت لحظة ثم تابع: «لم يكن الأمر مسلياً قط، يا ماري، صدقيني. كل يوم كنت ازداد كرهاً لنفسي، ولكذبي ذاك».

قوله هذا كان يفيض بالمشاعر والندم الصادق. وفجأة، تلاشت شكوك ماري فيه كلياً، ولم تعد ترى فيه شيئاً تكرهه.

قال وهو يأسرها بنظراته: «كانت لي غاضبة، حاقدة، لأنني أخبرتها بأنني لا أحبها، كما أنني أخبرتها عمن أحب».

جف حلقها: «هل فعلت ذلك؟»

فهمس: «نعم. أخبرتها بأنني... أحبك».

خفق قلبها بجنون، وخشيت أنها لم تسمع جيداً: «تحب من؟».

فقال جاداً وعيناه تخترقان عينيها: «أنت، يا ماري أحبك، ومنذ اللحظة التي رأيتك فيها».

أمسك بيدها، وشعرت بالشوق والتوقع، والرغبة. وتمتم: «لم أكن أظن هذا سيحدث مرة أخرى».

انتبهت إلى نهاية كلامه: «مرة أخرى؟».

فأومأ: «نعم. فقد كنت متزوجاً لمدة ثلاث سنوات. ثلاث سنوات رائعة. وبعد أن ماتت أناليزا... لم أكن أرجو...».

وسكت، وأحست ماري بأنه يجد صعوبة في تمالك نفسه: «وإذا بي أقابلك فجأة، ويصبح قلبي لك».

كانت نظراته رقيقة وعيناه حزينتين: «أنا أعلم أنك تكرهينني، لكنني كنت أمل أن تغفري لي يوماً ما. وإذا كنت في ويتيرينغ أزاول المحاماة، وأساعد الأطفال، والناس الفقراء مثل أبيك على أن يحصلوا على العدالة... عندذلك ربما...».

كانت كلماته غامضة غير ثابتة، وترك الجملة عند هذا الحد.

حدّقت إليه. كان ما كشف عنه أبطأ من أن تسجله حواسها التي تملكها الدوار، وسألته غير مصدقة: «أنت... أنت تحبني!».

هل قال ذلك حقاً؟ أم أنها ابتدأت تجن تماماً؟

- أحبك أكثر من حياتي.

وأمسك يدها. كان عمله هذا بالغ العذوبة، بالغ النقاء، حتى أنها

أوشكت على البكاء. وابتدأت تتسابق في ذهنها أفكار غريبة خارقة وكررت وصوتها يتهدج بالمشاعر: «أنت.. تحبني؟».

شُغفت بصدى هذه الكلمات، لكنها صدقتها بصعوبة.

ابتسم بكآبة: «لا تذهلي هكذا. ليس ضرورياً أن يكون هذا... معدياً».

حلّق قلبها إلى السماء. جمال اعترافه الهادىء ملأ قلبها: «ولكن... ولكنه كذلك فعلاً!».

صرخت بذلك ثم هزت رأسها. كيف أمكنها أن تنطق، دون تروّي، بتلك الجملة الغبية: «أعني... أنني أحبك. لم أكن أريد ذلك، ولكنني لم أستطع أن أمنع نفسي».

حدّق فيها صامتاً لحظة، ونظراته ترسل في كيانها تياراً كهربائياً، ثم، وكأن الشمس عادت تشرق بعد عاصفة ثلجية، ابتسم. ثم أخذ وجهها بين يديه: «حسناً، إذن. لدي سؤال لك».

وضعت يدها على يديه: «اسأل ما تريد».

- كنت أرجو أن تقبل الممرضة ذات الطبع الشرس بأن تقبل الزواج من محامٍ تعب من إنقاذ السفن الغارقة.

تأملت وجهه الجذاب الحاد التقاطيع، وانهمرت دموع السعادة من عينيها: «أظن بإمكاني أن أقنعها».

وطوقت عنقه بذراعيها تقرّبه إليها: «نعم، آه نعم، يا حبيبتي. لن أستطيع أن أقول سوى ذلك».

فأخذها بين ذراعيه: «أحبك، يا ماري أومارا، وسأحبك إلى الأبد...».